الضغينة

"الإنتقام نار تلتهم ضحيتها قبل أن تحرق من يشعلها."

سديل ياسر

الضغينة... كلمة من خمسة أحرف، لكنها بحر من المشاعر المتناقضة، حقدٌ يتغلغل في الأعماق، وغضبٌ يشتعل كجمر تحت الرمّاد، وكتمانٌ يثقل الصدر، وضعفٌ يخفيه الكبرياء، وقوةٌ زائفة تهوي بك إلى الهاوية.

إنها شعور يحمل في طياته صراعًا بين الانكسار والرغبة في الانتقام ، تهدمك وتشتتك وتدمرك. إنها نيران تأكل الجسد والروح، تهدمك ببطء وأنت تراها تتصاعد دون أن تملك القدرة على إطفائها.

لكن الملامة... ليست على الشعور نفسه، بل على من أشعل الشرارة الأولى في جوفك. على من زرع تلك البذرة المسمومة في قلبك. فهل يمكن لتلك النيران أن تخمد يومًا؟ أم أن مصيرها أن تلتهمك بالكامل؟

في ذلك الصباح، صدحت زقزقة العصافير، وتسللت أشعة الشمس إلى أرجاء المنزل الخاوي من الحياة. كان الهدوء سيد المكان وسلطانه، حتى قطعه كقطعة من الحلوى، صوت المنبّه المزعج الذي ضبطته بان لينهضها إلى عملها الخفي، ذلك العمل الذي كلما تساءل عنه ساجي، تلقّى صفعة قاسية تليها كلماتها الحادة: "لا شأن لك، يكفي أنني أعمل لأطعمك."

استيقظ ساجي في الغرفة المجاورة، بينما ظلت هي غارقة في سباتها. أطلق تنهيدة ضجرة، تبعتها شتائم متذمرة، قبل أن ينهض متجهًا إلى غرفتها. فتح الباب بعنف، واقترب منها بخطوات سريعة.

هزّ كتفها بقوة، وصاح بصوت نافد الصبر:

ساجي: بان! استيقظي!

فتحت بان عينيها ببطء، ونظرت إليه بنعاس

متهدل: ها؟

زفر بغضب وقال: انهضي إلى العمل، أيتها الخرقاء!
انتفضت بان جالسة، وبحركة خاطفة، صفعت وجهه بقوة، قائلة بحدة: احترم أختك الكبيرة، أيها الجرو الصغير!
حدّق بها ساجي بنظرة حاقدة، ثم استدار وعاد إلى فراشه، وكأن المشهد لم يكن سوى حلقة مكررة من مسرحية رتيبة.
أما هي، فبقيت متسمرة على سريرها، تحاول استجماع أفكارها وسط الضبابية التي يفرضها الصباح. كالعادة... هذه هي بان...
مدّت يدها إلى هاتفها، وبمجرد أن وقعت عيناها على الساعة، شهقت بصوت مرتفع:
بان: اللعنة! لقد تأخرت!
قفزت من سريرها على عجل، ارتدت ملابس سوداء قاتمة، ثم أسدلت قناعها ليخفي ملامحها. التقطت حقيبتها، واتجهت مسرعة نحو وجهتها الجديدة... وجهة أخرى، منزل آخر، كما هو الحال دائمًا.

وصلت إلى ذلك القصر الضخم، وكانت هيئته الخارجية كافية لتوحي بكمية الشر الذي يقطن بين جدرانه. بدا وكأنه يقف متربصًا بكل من يجرؤ على الاقتراب، لكن بان لم تكن من النوع الذي يتراجع أمام الأبواب الموصدة.

سارت بثبات حتى وصلت إلى البوابة وطرقت الباب. ورغم الرهبة التي يبعثها هذا المكان المريب، إلا أنها اعتادت على المنازل التى تخفى خلف جدرانها أكثر مما يظهر.

فُتح الباب، وخرجت منه سيدة بملابس جعلت بان تدرك فورًا أنها الخادمة. رمقتها من رأسها حتى أخمص قدميها، ثم سألتها ببرود: بان؟

بان: أجل، أنا بان.

الخادمة: اتبعيني.

خطت بان إلى الداخل، وأغلقت الباب خلفها، ثم أطلقت نظرة متفحصة على المكان. الأثاث الفاخر، اللوحات الغريبة، والتصميم العريق... كل شيء هنا ينطق بالثراء والغموض. للحظة، تذكرت القرض الذي أخذته فقط لشراء طقم كنب لا يصل حتى إلى ربع سعر هذا الطقم الفاخر.

واصلت السير خلف الخادمة حتى وصلتا إلى مدخل القبو. رطوبة المكان ورائحته الثقيلة جعلت شيئًا ما ينقبض في صدرها، لكن ملامحها لم تتغير.

الخادمة: أكملي إلى تلك الغرفة، واحرصي على تنظيفها جيدًا... وإلا سيكون مصيرك مثله.

لم تحتج إلى سؤال عمن تقصده، بل اكتفت بإيماءة باردة وأكملت طريقها نحو الغرفة وحدها.

دفعت الباب بهدوء، ثم تنفست بعمق قبل أن تشرع في التنظيف.

بان: اللعنة على المجرمين، كل هذه الدماء ويريدون مني تنظيفها! من يا ترى الضحية هذه المرة؟

تقدمت قليلًا نحو الجثة المغطاة بقطعة قماش رمادية. الفضول بدأ ينهش عقلها، كانت على وشك إزالتها لترى الوجه المخفي تحتها، حتى قُطع صمت المكان فجأة بدخول رجل غريب.

رمقها بنظرة حادة، نظرة جعلت الهواء في الغرفة يثقل للحظة، ثم تقدم بلا كلمة، حمل الجثة، وغادر كما لو أنه ينقل قطعة أثاث لا أكثر.

حدّقت بان فى الباب الذى اختفى خلفه للحظات، ثم تمتمت في نفسها بسخرية باردة: يا لهم من مختلين...

تجاهلت ذلك كله، وأكملت عملها
حتى هلكت من التعب. جلست قليلاً،
سارحة في حالها، تفكر في كل شيء
مرّت به.
بان: لأطعم أخي أجبرت على أن
أعمل في هذا العمل المقزز، أنظف
دماء الضحايا التي خلفها رجال
العصابات المجرمون. أعرض حياتي
للخطر فقط لأوفر حياة مريحة لأخي.
الحياة ظالمة بحق.
ظلت تتنفس ببطء، وعينيها تائهتين
في المكان الذي تملأه رائحة الدماء.
بانّ: البلاد مليئة بالأوغاد حقًا، يا ترى
ما الذي فعله ذاك الرجل ليموت
هكذا؟

أنهت بان تنظيفها، وبدأت بجمع
مقتنياتها لتغادر هذا المكان المريع.
لكن بينما كانت على وشك الخروج،
شعرت بشيء غريب، وكأن أحدهم
دخل الغرفة.
استدارت فجأة، وإذا برجل في
الثلاثينيات من عمره يقف أمامها.
كان طويلاً، ضخم البنية، وعضلاته
بارزة بشكل مريب. عيناه داكنتان
للغاية، كأنهما تخفيان وراءهما أسرارًا
مظلمة.
بلعت ريقي خوفًا منه، أقسم لو أنه
صافحني لكسر يدي من عضلاته
تلك.

.....: أنتِ الخادمة التي تنظف دماء الأوغادَ؟
لعنته في نفسها، لكن لسانها بقي صامتًا.
بان: لست خادمة يا وغد.
ابتسمت بان ابتسامة مريرة، وقالت:
نعم، أنا هي.
نظر إليها بهدوء عجيب، وكأنها لم تكن تهدد حياته قبل لحظات، ثم قال بهدوء:
.....: ما اسمك؟
فكرت بان في الأمر لثوانٍ، هل عليّ أن أخبره؟ لا، حتماً سأكون ضحيته القادمة. ولكن إن لم أخبره، سيقضي علي بعضلاته تلك.
تردد صوت في عقلها، وأخذت نفسًا عميقًا.

بان: اسمي بان، وأنت ما اسمك؟
واللعنة، ما الذي قلته؟ إنني حقًا
حمقاء! ما شأني باسمه!
نظر إليها بهدوء عميق، ثم قال بصوت
ثابت:
نيار. يمكنكِ أن تغادري الآن.
خرجت بانَ مسرعة، وهى تلتقط
أنفاسها بصعوبة، ثم توجهت لتبحث
عن الخادمة التي أدخلتها.
وجدتها أخيرًا، وأخذت منها النقود
مقابل عملها، وكالعادة، هددوها بأنها
إن تجرأت على قول أي شيء، سيكون
مصيرها مثل ما رأت.

عادت بان إلى المنزل، وما إن فتحت الباب حتى رأت ساجي يرتدي ثيابه بسرعة، وكأنه في عجلة من أمره للخروج. رفعت حاجبها باستغراب وسألته:

بان: إلى أين أنت ذاهب؟

توقف ساجي للحظة، وكأنه يحاول التفكير بسرعة، ثم أجاب بتوتر:

ساجي: إلى المدرسة...

ضيّقت بان عينيها وقالت بسخرية:

بان: المدرسة؟ نحن في إجازة الصيف، يا ذكي.

قهقه ساجي محاولًا التهرب: كنت أمازحك!

هزّت بان رأسها بابتسامة جانبية، ثم قالتَ بنبرة أخف:

بان: إن لم تخبرني بالحقيقة، فلن أدعك تخرج من المنزل.

زفر ساجي بضيق، ثم اعترف:

ساجي: سألتقي بأصدقائي.

نظرت إليه بان بريبة قبل أن ترفع حاجبها مازحة:

هل لديك حبيبة؟

اتسعت عينا ساجي في صدمة، فردّ بسرعة: لا!

ضحكت بان بخفة وقالت: إذًا لا بد أنك تشعر بالوحدة.

ثم ربتت على كتفه بلطف وأضافت: اذهب، لكن انتبه على نفسك، لا تقع في المشاكل، ولا تتأخر كثيرًا.

ابتسم ساجي في ارتياح، ولوّح لها قبل أن يخرج، بينما بقيت بان تتابعه بنظرة دافئة، تخفي خلفها ألف فكرة.

بعد أن أنهت بان تنظيف المنزل وترتيبه، توجهت إلى المطبخ لطهي الطعام. ملأت رائحة الطعام المكان، لكن لا أحد ليشاركها المائدة سوى الصمت.

جلست بعدها على تلك الكنبة البنية، ترخي جسدها المتعب، وعيناها تجولان في أنحاء الغرفة. ما إن وقعت نظراتها على الكنبة المقابلة حتى شعرت بوخزة في قلبها... هناك، في ذلك المكان تحديدًا، كانت والدتها تجلس، تسرّح شعرها برفق، بينما والدها كان في الحديقة مع ساجي، يزرعون الأزهار بضحكات تملأ الأرجاء.

كل تلك اللحظات الجميلة... لم تعد سوى ذكريات.

تمنت، ولو للحظة، لو أنها ذهبت معهم في ذلك اليوم... لو أنها كانت برفقتهم حين وقع الحادث، لو أنها رحلت معهم بدلًا من أن تُترك خلفهم تحارب هذه الحياة بمفردها.

لكن ما فائدة التمني بعد فوات الأوان؟ لا يجلب سوى الحسرة، والقهر، والألم.

ساعة...
ساعتان...
ثلاثة...
حتى قطع صوت رنين الجرس صمت المنزل.
نهضت بان بسرعة وفتحت الباب، لتجد ساجي واقفًا هناك، شاحب الوجه وكأنه قد عاد من معركة.
بان: ما بك؟ تبدو شاحبًا!
ساجي: لا شيء... فقط جائع.
تأملته بان للحظة، لم تصدقه تمامًا، لكنه لم يمنحها فرصة للاستفسار أكثر.
بان: غير ثيابك وتعال لنتناول الطعام.
دخل ساجي إلى غرفته، بينما وضعت بان الطعام على الطاولة. جلسا معًا، أمام الأطباق التي غلفتها رائحة الطفولة والذكريات.
ساجي: يبدو شهيًا... يشبه طعام أمي.
ابتسمت بان بخفة: انتبه، إنه ساخن.

ظل ساجي صامتًا للحظة، ثم رفع رأسه وقال فجأة:
ساجي: بان، لو متُّ في ذلك اليوم... هل كنتِ ستبكين علي؟
توقفت يدها عن الحركة للحظة قبل أن ترفع حاجبها وترد بتهكم:
بان: أي يوم يا ترى؟ مرة كنت ستغرق فأنقذتك، ومرة كنت ستسقط من أعلى الجبل فأمسكت بك، ومرة أخرى كنت على وشك السقوط من الشجرة فحملتك... و—
قاطعها ساجي بصوت هادئ، لكن نبرته كانت جادة هذه المرة:
ساجي: لا يهم... بأي واحدة منهن، هل كنتِ ستبكين فرحًا أم حزنًا على فراقي؟
توقفت بان عن الكلام، حدقت فيه للحظة، ثم ضربته على رأسه.
ساجي: أخ! بان، لقد آلمتني!

بان: تستحق ذلك لأنك وغد! لماذا تقول شيئًا كهذا؟ بالطبع سأبكي عليك حزنًا وحرقة... أنت أخي الوحيد، لو طلبت مني روحي وعمري، سأمنحك إياهما بلا تفكير.

نظر إليها ساجي باستغراب قبل أن يبتسم بمكر

ساجي: ما بكِ... رومانسية فجأة؟

بان: المشكلة ليست في إجابتي، بل في سؤالك الأحمق! تناول طعامك بهدوء، ألم أعلّمك آداب الطعام؟

ضحك ساجي قليلًا، لكنه سرعان ما استعاد جديته، ووضع الملعقة جانبًا.

ساجي: بان...
بان: نعم؟
تردد للحظة قبل أن يقول بصوت ثابت:
ساجي: أنا أقدّر كل ما تفعلينه من أجلي...
واليوم بدأت بالعمل.
توقفت بان عن الأكل، رفعت عينيها وحدقت فيه بحدة.
بان: عمل؟ ما طبيعته؟ لا تزال طالبًا فى الثانوية، لم أطلب منك أن تعمل، ثم كيف تتخذ قرارًا كهذا دون استشارتي؟!
حاول ساجي مقاطعتها، لكنها استمرت في الحديث، وملامحها تعكس مزيجًا من الغضب والقلق.
ساجي: دعيني أتكلم للحظة!
زفرت بان بضيق، ثم قالت بجدية:
بان: أنا أسمعك.

ساجي: أعمل مع مجموعة من الرجال لكشف ألاعيب عصابة ما، وإذا نجحنا في ذلك... سأكسب مليون دولار يا بان!

اتسعت عينا بان بصدمة، وشهقت بصوت مرتفع قبل أن تهتف بغضب:

بان: اترك هذا العمل فورًا! هل تظن الأمر بسيطًا وسهلًا؟ إنه أخطر مما تتخيل! رجال العصابات ليسوا أشخاصًا يمكنك العبث معهم، ساجي... سيدمرون حياتك!

نهضت فجأة، وضربت الطاولة بقوة، لدرجة أن الأواني اهتزت فوقها.

بان: ستترك ذلك العمل اللعين... فهمت؟!

نظر إليها ساجي مصدومًا، لم يتوقع ردة فعلها العنيفة.

ساجي: ما بكِ تصرخين هكذا؟

بان: ساجي، اَسمع كلامي... إياك والتورط معهم!

رمقها للحظة، ثم زفر بضيق وقال: حسنًا، فهمت!

لم ترد عليه، استدارت بسرعة، متجهة إلى غرفتها، وأغلقت الباب بقوة خلفها. استندت إلى الحائط، وأحاطت وجهها الصغير بكفيها، تحاول تهدئة أنفاسها المضطربة.

"أتمنى ألا يقع في شباك الأوغاد... أخاف عليه حتى من نسمة الهواء."

أغمضت عينيها، لكن المشاهد التي رأتها اليوم في ذلك القبو عادت لتطاردها... الدماء، الجثة، النظرات المتوحشة... لا، لا يمكنها السماح لأخيها بالاقتراب من هذا العالم الموحل. شعرت بدموعها تنهمر بصمت، خوفًا عليه أكثر من خوفها على نفسها.

أما ساجى، فقد بقى جالسًا فى مكانه، ينظر إلى الطاولة بصمت. لأول مرة، يرى أخته بهذا الغضب، بهذا الخوف الحقيقي... لم تكن تصرخ لمجرد العناد، بل لأنها كانت مذعورة من أجله.

أحس بثقل المسؤولية التي تحملها بان على كتفيها، لقد أصبحت الأم والأب والأخت معًا، بينما هو... يجلس بلا حول ولا قوة. كره ضعفه، مقت إحساسه بالعجز، وهو يرى أخته تعود كل يوم مُنهكة، ورغم ذلك، ترسم ابتسامة متماسكة تخفي خلفها كل الألم.

كم مرة فكر في عصيانها؟ كم مرة أراد أن يفعل ما يراه مناسبًا دون الرجوع إليها؟ لكن في كل مرة، كان يتذكر صوت والدته وهي تخبره بصوت دافئ:

"أختك بان... كلمتها كلمتي، تعرف مصلحتك أكثر منك، وتحبك أكثر مما تتخيل. لذلك، يا بني، لا تعص لها أمرًا... فهي أرشد منك عمرًا وعقلًا."

لكن هذه المرة... هل سيرد ساجي على أخته بان؟

بداية يوم جديد، لكن بان لم تشعر به كغيرها. كانت مستلقية على سريرها، تحدّق في سقف غرفتها بعينين مرهقتين، تفركهما بكفيها وكأنها تحاول محو أثر الأرق. لم تنم، لم تغفُ حتى، بل ظلّت أفكارها تنهش رأسها طيلة الليل، تدور حول كلمات ساجى كدوامة لا تنتهي.

زفرت بضيق، ونهضت أخيرًا. قادتها قدماها إلى غرفة أخيها، فتحت الباب بحذر لتجده غارقًا في النوم، تنفسه هادئ، ملامحه الطفولية لا تزال بريئة رغم كل شيء. تراجعت خطوة للخلف، ثم استدارت مغلقة الباب بهدوء.

رنّ هاتفها، نظرت إليه بملل، رسالة
واحدة فقط: "عمل جديد اليوم. الموقع
مرفق بالرسالة."
تنهّدت وهي تفكر كم تكره هذا العمل،
لكنها حمدت الله أن وضعها بدأ يتحسّن،
فبعد هذا الأسبوع، ستبدأ البحث عن عمل
آخر... عمل لا يجعلها تغرق في الدماء.
ارتدت ثيابها السوداء كعادتها، وضعت
القناع على وجهها، وخرجت من المنزل،
ترتدي معطفًا من الصبر فوق كتفيها. لكن
ما إن وصلت إلى العنوان حتى توقفت
للحظة، قلبها ينبض بقوة وهي تحدّق في
ذلك القصر المريب.

"أليس هذا منزل ذلك الرجل؟ ما كان اسمه...؟ آه، نيار."

زفرت بحدة، ثم تقدّمت للداخل، معتادة على الرائحة التي تفوح بالمكان، على الممرات الطويلة التي تحمل الكثير من الأسرار. باشرت عملها بصمت، لا جديد هذه المرة، سوى أن الخادمة نادتها قبل أن تهمّ بالخروج.

الخادمة: "السيد يريدكِ."

شعرت بان بقبضة باردة تقبض على صدرها، لكنها لم تُظهر ذلك، فقط تبعتها حتى وصلت إلى المكتب. كان نيار يجلس هناك، خلف مكتبه الضخم، نظراته الحادة تزنها كما لو كان يقيّم شيئًا ثمينًا أمامه.

نيار: "أهلًا بكِ مجددًا يا... هممم، نسيت اسمك."

بان: "اسمي بَان، سيدي."

نيار: "بان... صحيح. أتيتِ هنا من قبل، أليس كذلك؟"

بان: "أجل، صحيح."

نيار: "ولم تخبري أحدًا؟ لم تنطقي ببنت شفة؟"
بان: (بثبات) "بالطبع لا، أقسم أنني لم أخبر أحدًا."
ضحك نيار، ضحكة خفيفة، لكنها كانت تحمل خبثًا .
نيار: "ولن تتجرئي حتى على فعل ذلك."
لم تعلّق بان، فقط عضّت على لسانها حتى لا تنطق بشيء قد يُهلكها.
نيار: "على أي حال، أعجبتني جرأتكِ، وعملكِ لا بأس به. لذا، ستعتادين على هذا المنزل كَثيرًا... المَزعجون في حياتي كُثر، ويبدو أن وقت التخلّص منهم قد حان."
شعرت بالقشعريرة تسري في جسدها، لكن ملامحها ظلّت ثابتة.
"لعنة الله على أمثالك، رجل قذر!"
نيار: "يمكنكِ الذهاب... لكن لا تعتادي على الغياب."
أومأت بصمتَ، ثم غادرت بسرعة، وعندما خرجت من القصر، زفرت أنفاسها وكأنها كانت تحبسها طوال الوقت.
في طريق العودة، لم تفعل شيئًا سوى شتمه، وشتم العالم الذي جعلها مضطرة للتعامل مع أمثاله.

بان:

"لم أرَ في حياتي رجلًا بقذارته... يا له من خبيث ومجرم! يجب أن أجد عملًا آخر بأسرع وقت."
عادت إلى المنزل وهي تشعر بغصة في قلبها، أسرعت إلى الحمام واستحمت كما اعتادت بعد كل يوم عمل هناك، وكأنها تحاول غسل آثار ذلك المكان عنها.
خرجت، شعرها لا يزال رطبًا، واتجهت مباشرة لتبحث عن ساجي. لكنها لم تجده.
تسارعت دقات قلبها، جفّ ريقها، وبدأت تنادي باسمه بصوت مرتجف تحول إلى صراخ هستيري:
بان: "ساجي! أين أنت؟!"
لم تمضِ سوى لحظات حتى خرج ساجي من الحمام، ينظر إليها باستغراب.
ساجي: "ما بكِ؟ لماذا تصرخين هكذا؟"
ركضت نحوه وعانقته بقوة، وكأنها تحاول التأكد من أنه حقيقي، أنه ما زال هنا.
بان: "الحمد لله أنك هنا..."

أبعدها ساجي قليلًا، ممسكًا بكتفيها، ونظر إليها بقلق.
ساجي: "ما الذي يحدث معك يا بان؟"
بان: (بتوتر) "لا شيء... ظننتَ أنك ذهبت لذلك العمل."
ساجي: (بابتسامة مطمئنة) "لا تقلقي، لن أعصي لكِ أمرًا كما نصحتني أمي. لكن... أريد أن أطلب منكِ شيئًا."
بان: "ماذا؟"
ساجي: "أريد الذهاب للتخييم مع أصدقائي... ليومين فقط."
رفعت حاجبها بتردد.
بان: "يومين؟ أليست هذه مدة طويلة؟"
ساجي: (برجاء) "أرجوكِ، بان!"
زفرت بهدوء، ثم أومأت على مضض.

بان: "حسنًا... متى ستذهب؟"
ساجي: "غدًا في الصباح الباكر."
بان: (بجدية) "حسنًا، لكن أبقِ هاتفك معك ولا تغلقه أبدًا، وإلا سأمنعك من مغادرة المنزل لشهر كامل!"
ساجي: (مازحًا) "حاضر، حاضر!"
بان: "أنا جادة، ساجي."
ساجي: (يبتسم) "وأنا أيضًا."

مضى اليوم كأي يوم آخر، تنظيف، طهي، بعض الوقت أمام التلفاز، حتى غفت بان على الأريكة من شدة الإرهاق، بعد أن قضت أكثر من أربع وعشرين ساعة دون نوم.

في اليوم التالي، استيقظت على صوت فتح الباب، فتحت عينيها بتثاقل لتجد ساجي واقفًا عند المدخل، حقيبته على كتفه، يستعد للمغادرة.

بان: (بصوت ناعس) "هل ستذهب الآن؟ كم الساعة؟"

ساجي: "أجل، السادسة صباحًا."

جلست بان وهي تفرك عينيها، ثم نظرت إليه بجديه.

بان: "انتبه على نفسك، ساجي. لا تجعلني أقلق... ورد على مكالماتي، فهمت؟"

ابتسم ساجي وهو يلوّح لها.

ساجي: "بان، لا تقلقي! سأذهب، وكالعادة... أحبك."
ضحكت بان بخفة، وهزّت رأسها.
بان: "ألن تتوقف عن هذه العادة، أيها الطفل؟"
ساجي: (بمرح) "لا، وسأظل أخبركِ أنني أحبكِ كلما خرجت."
بان: (بابتسامة دافئة) "وأنا أيضًا أحبك... هيا، اذهب قبل أن تتأخر."
ساجي: "حسنًا، إلى اللقاء!"
شاهدته وهو يخرج، شعور غريب تسلل إلى قلبها، وكأنها تخشى أن يطول الغياب أكثر مما ينبغي.

خرج ساجي، وبقيت بان تحدق بالمنزل من حولها ثم نظرت إلى الساعة. تذكرت أنه لا عمل لديها اليوم، لكنها كانت تدرك أنها بحاجة للبحث عن عمل جديد. نهضت، ارتدت فستانًا باللون الوردي المغبر، وتوجهت في رحلة البحث عن أي فرصة.

توجهت إلى المطاعم والمقاهي لتسأل إن كانوا بحاجة إلى نادلة، وكذلك إلى متجر الورود إن كانوا يحتاجون إلى عاملة، حتى إلى البقالة إن كانوا يحتاجون إلى محاسبة. كانت تبحث عن أي فرصة، أي بداية جديدة لتبدأ حياتها من جديد.

لكنها شعرت بالإحباط، وعندما كانت ستعود إلى منزلها، دخلت إلى آخر مقهى. كان يوجد هناك شاب غريب الأطوار.

بان: "مرحبًا."

الشاب: "أهلا."

بان: "هل تبحثون عن عاملة؟"

الشاب: "أجل، فقد استقال الوغد الذي كان يعمل عندي."

بان بنفسها: "أشكر الله ثم ذاك الرجل، الحمد لله أنه استقال."

بان: "ومتى سأباشر عملي؟"

الشاب: "سأعطيكِ خبرًا لاحقًا. اتركي رقمك عندي."

تركت رقمها، ثم عادت إلى المنزل. كان الوقت يقترب من منتصف الليل عندما رن هاتفها. فرحت في البداية ظنًا أن المتصل هو ساجي، لكنها اكتشفت أنه نفس الرقم الذي يتصلون به من طرف نيار.

فتحت الخط ووضعته على أذنها.
بان: "مرحبًا."
نيار: "أنا نيار."
ارتعش جسدها، إذ بالعادة يرد عليها أحد رجاله لا هو شخصيًا.
بان: "كيف يمكنني أن أساعدك، سيدي؟"
نيار: "تعالي لتنظفي كالعادة. لا تتأخري، وإلا ستلقين حتفك مثلهم."
ثم قطع الخط.
ما به هذا المجنون؟ الوقت متأخر جدًا!

ركضت بان نحو منزلها، تحاول أن تجهز نفسها بأسرع ما يمكن. أخذت حقيبتها، وكانت تلهث خوفًا من أن تتأخر، ومضطربة لأنها لأول مرة ستغادر المنزل في هذا الوقت المتأخر.

طيلة الطريق، كانت تشتم نيار وتندب حظها على هذا العمل الذى وضعها فيه. كانت ترتعش خوفًا، وقلبها ينبض بقوة، وكأن كل خطوة تخطوها تثقل قدميها أكثر.

وصلت إلى المكان، ونظرت إلى ذلك المنزل الضخم المظلم، الذي بدا كأن الظلال تتراكم عليه، وكأن كل ركن فيه يروي قصة من الألم والخوف.

بان:
كم أبغض هذا المنزل، وأكره فكرة أنَّ صاحبه يعرفني شخصيًا.
اتجهتُ وطرقتُ الباب، لكن هذه المرة لم تفتح لي الخادمة، بل كانت سيدة فائقة الجمال، تفوح منها رائحة العود والمسك لا شك فى أنه باهظ الثمن. كانت ترتدى فستانًا أنيقًا باللون البني الداكن، يبرز مفاتنها ويتناسب تمامًا مع لون شعرها وعينيها.
بان: مرحبًا، طلب مني السيد نيار أن آتي.
وجد: آه، أنتِ بان، صحيح؟
بان: أجل.
مدَّت يدها لتصافحني، فصافحتها على الفور.
وجد: أنا زوجة نيار.

تشنَّج جسدي فور سماعي لكلامها، زوجته؟ كيف يمكن لامرأة مثلها أن تتزوج برجل قذر مثله؟

بان: تشرفتُ بمعرفتك، سيدتى.

أدخلتني إلى المنزل، لَكن هذه المرة لم تأمرني بالعمل فورًا، بل دعتني للجلوس على الكنبة الفاخرة. بمجرد أن جلَستُ عليها، شعرت وكأنني فوق السحاب من نعومتها.

وجد: إذا يا بان، كيف حالكِ؟

بان: بخير، سيدتي.

وجد: أعلم أنكِ تتساءلين عن سبب وجودكِ هنا، نيار لم ينهِ عملَه بعد.

اكتفيتُ بالإيماء برأسي بعد سماعي لكلماتها.

وجد: لا بد أنك فى سنٍّ قريب من عمرى، صحيح؟

بان: كم عمركِ، سيدتي؟

وجد: ستة وعشرون عامًا، ماذا عنكِ؟

بان: أنا أصغركِ بثلاثة أعوام سيدتَي.

وجد: جيد... على أي حال، طاقتك جميلة.
صُدمتُ من كلامها، شعرتُ وكأنَها تعرفني
منذ سنوات، كانت تتحدث إليَّ بأريحية
مطلقة وكأن بيننا علاقة قديمة.
بان: أشكركِ، سيدتي.
وجد: ما رأيكَ أن تعملي لديَّ في هذا المنزل
بدلًا من ساراَ؟
من تكون سارا؟ كان هذا السؤال يتردد في
رأسي دون توقف.

بان: سيدتي، من هي سارا؟
وجد: خادمتي السابقة.
إذًا، تلك السيدة كانت تُدعى سارا، ولهذا لم تفتح لي الباب اليوم. ولكن، لماذا استقالت؟
بان: تقصدين أن أكون خادمة في هذا المنزل؟ وأيضًا، أعتذر عن التطفل، ولكن أين سارا؟
ضحكت وجد بخفة، ثم قالت: من الصعب يا بان إيجاد خادمة جديرة بالثقة، وأيضًا من الصعب عليكِ الذهاب والإياب إلى هنا في هذا الوقت المتأخر، فالأوغاد كُثر في المدينة.
قلت في نفسي: بالطبع، وزوجكِ أكبر وغد في المدينة... بل في العالم بأسره.
وجد: وأيضًا، نيار يمر بفترة صعبة، وسيستوجب عليكِ المجيء كثيرًا إلى هنا.
فترة صعبة؟ ويتوجب عليّ المجيء؟ لا بد أنه سيقتل المزيد... عديم الرحمة!

وجد: آه، أما عن سارا... فقد جنت الهلاك لنفسها.

توقف عقلي عن التفكير، وتجمدت في مكاني.

وجد: لقد حاولت الهروب من المنزل وإخبار أحدهم عن أعمال نيار، ولكنها كُشفت، وكما تعلمين...

اقتربت وجد وجلست بجانبي، ثم رفعت يدها ببطء، وقربتها من رقبتها، مُحركة إياها من اليمين إلى اليسار في إشارة إلى الطريقة التي تم قتلها بها.

بلعتُ ريقي بصعوبة، وشعرتُ برعب شديد مما سمعته للتو.

قطع حديثنا دخول نيار.

نيار: آه، أنتِ هنا.

بان: نعم، سيدي.
نيار: اذهبي ونظّفي كما اعتدتِ.
ذهبت وجد وحاوطت خصر زوجها بيديها، ثم قالت له: نيار، ما رأيك أن تصبح بان خادمتنا الجديدة؟ إنها جديرة بالثقة ولطيفة.
قلت في نفسي: وكأن الأمر مرتبط بموافقتكما أنتَ وزوجك! الأمر يعود لي أنا.

نظر نيار إليَّ، ثم إلى زوجته، قبل أن يقول ببرود: لا مانع عندي، ولكن إن ارتكبتِ أي خطأ، حتى لو كان بسيطًا، فحياتك بين يديّ.
وجد: إذًا، ما رأيكِ يا بان؟
بان: سيدتي، سأفَكر في الأمر، أعدكِ.
رمقنى نيار بنظرة باردة، من رأسى حتى قدمي، ثم قال: اذهبي لعملكِ، هيا.
أومأتُ برأسي، ثم حملتُ حَقيبتي السوداء واتجهت إلى العمل، بينما كانت أفكارى تتشابك فى رأسى، تحاول استيعاب ما يحدث من حولي.

بقيت وجد وزوجها في غرفة الجلوس.
وجد: نيار، هل حقًا أنت موافق على
بقائها هنا؟
نيار: بما أنكِ طلبتِ ذلك، فكيف
سأرفض لكِ طلبًا؟ وأيضًا، تعاملتُ معها
مرات عديدة في السابق، ولا أتوقع أنها
سترفض.
وجد: أنت مكّار، حبيبي.
ضحك نيار بصوت عالٍ، ثم قال بثقة:
بالطبع يا زوجتي، كل الأمور بين يديّ.

بان:

دخلت تلك الغرفة من جديد، وكالعادة كان يترك الجثة على الجانب ويضع عليها ذلك الغطاء الرمادى، لكن الدماء هذه المرة كانت قليلة. دخل ذلك الرجل وأخذ الجثة، ثم بدأت بتنظيف المكان ومسح كل أثر حتى عاد كما كان.

وكالعادة، أصبحت لحظة الشرود بعد إنهاء عملي جزءًا لا يتجزأ مني...

هل سيكون مصيري في يوم من الأيام مثلهم؟ هل سأتخلص منهم؟ يومًا بعد يوم يزداد الأمر تعقيدًا، وكلما حاولت اتخاذ عشر خطوات للخلف، وجدت نفسي أتقدم عشرين خطوة إلى الأمام.

أتمنى لو أنني كنت مع والديّ في ذلك اليوم...
أتمنى لو أنني متُّ معهما...
لكن، من كان سيعتني بساجي؟
هو السبب الوحيد الذي يجعلني أرغب في الحياة وأتمسك بها. من أجله، أقوى حين أضعف، وأتماسك حين أنهار، وأبتسم حتى وإن كان داخلي نهر من الأحزان والهموم الفائضة.
انهمرت الدموع من عيني دون أن أشعر، فمسحتها بطرف يدي حتى لا يتلطخ وجهي بآثار الدماء التي على أكمامي. ثم نهضت، وخلعت سترتي الملطخة، ووضعتها في الحقيبة وأغلقتها بإحكام قبل أن أصعد إلى الأعلى.

كانت وجد لا تزال جالسة تتصفح هاتفها.
رفعت عينيها عندما رأتني...
وجد: انتهيتِ؟
بان: نعم، سيدتي.
وجد: خذي.
مدّت يدها إليّ وأعطتني أجري، وكان فوق النقود ورقة بيضاء تحمل رقمًا.
وجد: هذا هو رقمي، فكّري بما قلته لكِ سابقًا.
غمزت لي ثم استدارت وصعدت إلى الأعلى.
شردت لوهلة، ثم تنهدت وذهبت إلى الباب، فتحته وخرجت متجهةً إلى منزلي من جديد.

في اليوم التالي:
استيقظت على صوت طرق الباب، فركت عينَي ونهضت مسرعةً لأفتحه. كان الطارق ساجي.
بان: أهلاً بك، كيف كانت رحلتك؟
ساجي بابتسامة: رائعة.
بان: لمَ أتيت مبكرًا؟ لقد قطعتَ نومي الجميل!
ساجي: أعتذر لعينيكِ اللتين تعشقان النوم.
ضربته بان بخفة علىَ رأسه، لكن قاطع حوارهما صوت رنين الهاتف.
ساجي: هذا صوت رنة هاتفك، من سيتصل بكِ فيّ هذا الوقت المبكر؟
بانَ: آه، لا تقلق، إنه العمل بالطبع.

ذهبتُ لأرى من المتصل، كان الرقم غير مسجل في هاتفي من قبل. رددتُ على المكالمة وقلتُ:
بان: مرحبًا، من المتصل؟
كان الصوت مألوفًا، إنها وجد!
وجد: مرحبًا، بان.
بان: سيدتي، كيف حصلتِ على رقمي؟
دوت ضحكاتها عبر المكالَمة، ثم قالت:
وجد: أخذته من نيار. هل فكرتِ بما قلته لكِ البارحة؟
بان في نفسها: لم يمضِ على كلامكِ 24 ساعة بعد!
بان: أعتذر، سيدتي، لقد استيقظتُ للتو، أحتاج إلى وقت أكثر للتفكير.
تنهدت وجد وقالت:
وجد: حسنًا، سجّلي رقمي، ربما ستحتاجينه قريبًا.
ثم قطعت الاتصال.

بان: واللعنة! لم تترك لي مجالًا لأرد عليها حتى! إنها تجبرنى بطريقة تبدو وكأنها ديمقراطية... أو ماذا!
ساجي: وما دخل الديمقراطية؟ هل جننتِ لتتحدثي مع نفسكِ يا بان؟
بان: ينقصني أنتَ حقًا!
ساجي: ما الذي يحصل معكِ يا فتاة؟
بان: رائحتك سيئة، اذهب واستحمّ.
قلب ساجي عينيه وقال: حسنًا، ولكن لن تهربى من الإجابة على سؤالى فى المرة القادمة.

وجد:
بعد أن أغلقَت مكالمتي مع تلك "بان"، نهضت وبدأت بالتزين. سرحت شعري ووضعت بعضًا من المكياج حتى قطع لحظاتي الهادئة دخول المربية.
المربية: سيدتي، سليم لم يكف عن البكاء.
وجد: وما شأني؟
المربية: سيدتي، بقي يردد بأنه يريدك.
تنهدت وجد: كنت أعلم أن فكرة إنجاب طفل كانت سيئة منذ البداية.
نهضت وجد وذهبت متجهة إلى غرفة ابنها الذي يبلغ من العمر أربعة أعوام.

فتحت الباب لتسمع صوت بكائه الذي ملأ المكان، ودموعه تسيل على خديه الورديين.
حملته وجد بين يديها وقالت:
وجد: ما بك يا سليم؟ كف عن البكاء!
نظر لها سليم وعيناه ممتلئتان بالدموع وقال:
سليم: ماما.
وجد: ماذا؟ لما تبكي؟ لست صغيرًا لتبكي يا سليم، ولقد عكرت مزاجي.
حزن سليم من كلام والدته، فهذا الكلام سيحزن الكبار البالغين، فكيف لطفل صغير أن يتحمله؟
أنزلته وجد من حضنها وأخبرته:
وجد: ابقَ مع المربية ولا تزعجني!
ثم ذهبت...

بعض النساء لا يجب عليهن الإنجاب مثل وجد. فأفضل وصف لها بأنها "والدة" ولم ولن تكون أمًا جيدة بسبب أنانيتها وغرورها.

عادت وجد إلى غرفتها ووضعت آخر لمساتها من العطر الفاخر، ورائحته الفواحة ملأت أرجاء الغرفة حتى دخل زوجها نيار.

نيار: ما هذا الجمال كله من الصباح الباكر؟

وجد: تزينت من أجلك.

نيار: جيد، جيد.

وجد: تبدو عابسًا منذ الصباح. ما الذي يجري؟

نيار: لا شيء، كالعادة، بسبب العمل.

وجد: حبيبي، لا تقلق، ومن يزعجك، أنهه.
ضَحك نيار: لا تقلقي، فأنا أكثر من يقوم بذلك، وقريبًا سأنهيهم.
وجد: شرك يعجبني كثيرًا.
نيار: أنا شرير بنظرك يا آنسة وجد.
وجد: أولًا، يا عزيزي، أنا سيدة، وثانيًا، أنت كل شيء بنظري.
نيار: المهم، أين سليم؟
وجد: هل تتجاهلني لتذهب إليه؟
نيار: ما بكِ حبيبتي؟ اشتقت لإبني لا أكثر. هو بغرفته، صحيح؟

وجد: أجل، بغرفته.
طبع نيار قبلة على رأسها ثم ذهب إلى غرفة سليم ليجده يلعب مع المربية. أول ما لمح سليم أباه، ركض نحوه وحضنه بقوة.
حمله نيار ووقف ثم قبل وجنته الناعمة.
نيار: كيف حالك، حبيبي الصغير؟
سليم: اشتقت لك أبي.
قرص نيار وجنته بخفة: وأنا كذلك، يا صغيري. هل أنت مستمتع باللعب؟
أومأ سليم مبتسمًا.
أنزل نيار سليم من بين يديه.
نيار: صغيري، يجب أن أذهب الآن للعمل، فوالدك مشغول. أعدك بأنني سأشتري لك ألعابًا كثيرة حين أعود، حسناً؟
سليم: حقًا؟

نيار: بالطبع، فأنت أغلى شيء عندي.
حضن سليم أباه.
سليم: أشكرك يا أبي.
بادله نيار الحضن ثم نظر إلى المربية بنظرة حادة. تغيرت نظرته من الحنية واللطف تجاه ابنه إلى الحدة والقسوة تجاه المربية.
نيار: اعتني به جيدًا.
المربية: بالطبع، سيدي.
ثم خرج نيار من الغرفة.

بان:

بينما كنت أسرّح شعري، سمعت صوت رنين هاتفي. دعوت داخلي بألّا تكون المتصلة وجد أو نيار. أمسكت بهاتفي لأجد أن الرقم غريب.

....: مرحبًا، بان، صحيح؟

بان: نعم، من المتصل؟

....: أنا صاحب المقهى، للأسف، لا يمكنك العمل عندي.

ثم أغلق الخط قبل أن يسمع ردّي حتى.

عبست قليلًا، لكن لا بأس، بإمكاني البحث عن عمل آخر.

لم تمضِ سوى دقائق معدودة حتى رن الهاتف مجددًا، لكن هذه المرة كانت المتصلة وجد.

وجد: بان، عزيزتي، كيف حالك؟

عزيزتي؟!

بان: بخير، سيدتي، وأنتِ كيف حال...

قاطعتني وجد: بان، لم تُعطِني جوابك بعد، هل ستعملين معي أم لا؟

هل إن رفضتُ، ستقتلني؟

بان: أنا أعتذر، سيدتي، لا أظن أنني
سأستطيع العمل معكِ، لأن...
قاطعتني وجد مجددًا: حسنًا.
ثم أغلقت الهاتف.
هل سأموت اليوم يا ترى؟ ولماذا الجميع
يغلق الخط بوجهي؟
في المرة القادمة، سأكون أسرع منهم.
نهضتُ لأنظّف المنزل، وبدأت بمسح
زجاج نافذة غرفتي، حتى لمحتُ في الخارج
ساجي مع مجموعة من الشباب الذين
يبدون أكبر منه سنًّا.
من هؤلاء؟ ولماذا ذهب دون أن يخبرني؟
خرجتُ مسرعة ولحقت به دون أن يشعر.
جملة واحدة كنتُ أردّدها داخلي: أتمنى ألّا
يكون ما ببالي صحيحًا...

هذا الطريق مألوف لديّ، نحن بالقرب من منزل رجل المافيا الخطير نيار!
ما علاقة ساجي به؟!
تجمّدتُ مكاني، لم أستطع القيام بأي حركة، فقد دخلوا جميعهم - ومن ضمنهم ساجي - إلى ذلك المنزل.
انتفض جسدي، وانقطع نفسي لوهلة.
انتظرتُ قليلًا، لعلّهم يخرجون، لكنني قررت أن أتجوّل قليلًا حتى يعود ساجي إلى المنزل، ثم سأتخذ قراري.
بقيتُ أسير في الشارع لا أعرف إلى أين، ولا لماذا أنا هنا، لكن التفكير التهم عقلي...

مرت ثلاث ساعات حتى عادت بان إلى المنزل مثل ثورٍ هائج، الشرارة تتطاير من عينيها. جزءٌ منها يريد الصراخ، وجزءٌ آخر يريد البكاء. ضربات قلبها متسارعة من الخوف، القلق، الحيرة، الغضب، والندم.

فتحت باب المنزل، وبعد دخولها أغلقته بقوة، ثم بدأت تصرخ باسم ساجي، حتى فتح باب غرفته وخرج منها.

ارتسمت ملامح الدهشة على وجه ساجي، ثم

قال:
ما بكِ؟ لماذا تصرخين؟
اقتربتَ بان منه وصفعته بقوة.
بان: أخبرني، ما الذي كنتَ تفعله في منزل نيار؟!
تلقّى ساجي صدمةً أشدّ من الصفعة التى أخذها.
وضع كفّه الأيمن على خده، ونظر إليها مصدومًا:
كيف تعرفين من هو نيار؟

صرخت بان بغضب:
— هذا ما يهمّك الآن؟! هل تعمل مع ذلك القذر؟!
أمسكت بكتفيه بقوة ثم قالت:
هل تريد أن تقتلني خوفًا وحسرة؟! أجبني! لماذا تصنّمت؟!
تأتأ ساجي متوترًا:
بان، اهدئي حتى أتمكّن من الإجابة عليكِ.
أزالت بان يديها عن كتفيه، وأزاحت شعرها المنسدل عن وجهها، ثم أخذت نفسًا عميقًا وقالت بهدوء:
أنا أسمعك.
ساجي:
بان، أنا أعتذر لأنني لم أخبركِ، لكن أرجوكِ، أعطني فرصةً لأثبت لكِ أنَني رجلٌ قويّ وأستطيع تحمّل مسؤولياتيَ وحدي. أنا...

قاطعته بان بحدة:

ساجي، اغلق فمك! هل شعرتَ يومًا بثقل المسؤولية؟! هل قصّرتُ معك بشيء يومًا؟! هل طلبتُ منك أيّ شيء؟!

توقّفت لوهلة، ثم أجابت بنفسها، وعيناها تشتعلان غضبًا:

لا!! وحتى لو أردتُ ذلك، هل ستكسب أموالًا ملوّثة بالدماء؟! لا زلت صغيرًا، لا تفقه شيئًا عن قذارة الناس وصعوبة الحياة، ومع ذلك، تبدأ مشوارك بهذا الطريق الخاطئ؟!

أخذت نفسًا مرتجفًا، ثم أكملت بصوتٍ يرتجف

من القهر:
أنت تعاندني دائمًا، لا تسمع كلامي! إن لم تفعل هذا من أجلي، فافعله من أجل والدينا!
قالت آخر كلماتها وهي تصرخ بحرقة، ثم أنزلت رأسها وبدأت تبكي، أو بالأحرى، انهارت تمامًا.
حتى ساجي، لم يتمالك نفسه، فذرفت عيناه الدموع. لم يتكلّم، بل اقترب منها وعانقها كطفلٍ يبحث عن والدته.

ساجي: بان، أرجوكِ، لا تبكي... أنا حقًا آسف، ووالله لم تَنقصِي عليّ شيئًا، لكن حماقتي سيطرت عليّ... أرجوك، سامحيني.

مسحت بان دموعها وقطعت عناقه لها، لتقابل وجهه الذي احمرّ من شدّة بكائه.

بان: وكيف ستصلح خطأك هذا؟

ساجي: سأنسحب، لن أعمل معهم.

بان: وهل تظنّ أنهم سيسمحون لك بالذهاب بهذه السهولة؟

ساجي: ثقي بي يا بان.
تنهدت بان ثم قالت:
أنا أثق بك، ولكن لا أثق بأفعالك.
ساجي: كلاهما يحملان نفس المعنى.
بان:
كفّ عن التهرّب وأجب على سؤالي.
ساجي: بان، صدّقيني، أعطني أسبوعًا واحدًا، وسأتخلّص منهم.
بان: سأعطيك فرصة واحدة، فهمت؟!
ساجي: ولكن بان... كيف تعرفين نيار؟
بان: ليس مهمًّا. اذهب للنوم، فغدًا لديك مدرسة.
ثم غادرت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها.

رمت جسدها على سريرها، وحدّقت في سقف الغرفة. بحرٌ من الأفكار اجتاح عقلها كعاصفة هوجاء. ما الذي سيحدث يا ترى؟ بقيتً تردّد هذا السؤال الذي لا إجابة له... حتى غطّت في نومٍ عميق

مرّت ثلاثة أيام، وكأيّ يومٍ آخر، لا شيء جديد. لكن القلق ظلّ يلازم بان بسبب ما حدث مع ساجي.

بعد انتهاء الدوام المدرسي، قرّر ساجي الذهاب إلى منزل نيار ليخبره بأنه لم يعد يريد العمل معه. دخل إلى ذلك المنزل الذي يبغضه، لكنه كان مضطرًا لمواجهته هذه المرة. وعندما فُتح الباب، تفاجأ بأن نيار نفسه من استقبله.

نيار: ما الذي تريده؟

ساجي: سيدي، أريد أن أطلب منك شيئًا ما.

نيار: ولِمَ أتيتَ إلى منزلي؟ لماذا لم تذهب إلى المكان الذي نلتقي فيه عادة؟

شعر ساجي بالتوتر للحظة، ثم قال معتذرًا، محاولًا إقناع نيار بكذبته:
ساجي: شعرتُ أن هناك شخصًا يلاحقني.
نيار: وجعلته يلحقك إلى منزلي؟
ساجي: ظننتُ أنه الخيار الأفضل بدلًا من أن يكتشف مقرّ عملك.
حدّق نيار به للحظة، ثم قال ببرود:
نيار: ساجي، ماذا تريد؟
كانت نظراته السوداوية، والشرّ المتطاير منه، كفيلة بجعل قلب ساجي يرتجف خوفًا. قبض كفّيه محاولًا التشجّع، ثم قال بحزم:
ساجي: لا أريد العمل معكم مرة أخرى.

أطلق نيار ضحكةً خفيفة، لكنه سرعان ما نظر إليه بجديّة وقال:
نيار: هذا الأمر يعود إليك، بما أنك تريد ذلك... لكن يجب علينا التخلّص من العائق، صحيح يا ساجي؟
شعر ساجي برعشة تسري في جسده، وبلع ريقه بصعوبة قبل أن يسأل بقلق:
ساجي: العائق؟
نظر إليه نيار نظرةً غامضة، ثم أشار له بعينيه:
نيار: الحق بي، لأعطيك أجرك.
شعر ساجي بالارتياح لوهلة، ففرح وتبعه دون تردّد.

بان:
كنت أُعدّ الطعام والهاتف بجانبي، وعيناي لا تفارق الساعة. يا ترى، لماذا تأخر ساجي حتى الآن؟
أكملت تقليب الطعام في القدر حتى قطع تفكيري صوت رنين الهاتف. نظرت إلى الشاشة، وكان الرقم الذي أبغضه من أعماق قلبي.
بان: مرحبًا.
....: تعالي إلى المنزل.
بان: متى؟
....: الآن.
بان: حسنًا.

أغلقت الهاتف، ثم أطفأت النار عن الطعام وذهبت لأرتدي ثيابي. حملت حقيبتي بسرعة، وكتبت على ورقة صغيرة ملاحظة لساجى، أخبره فيها ألا ينتظرنى وأن يتناول طعامه.

وصلت إلى ذلك المنزل المعتاد، لكن لا أعلم لماذا أشعر هذه المرة بأن كل شيء مختلف. وكأنها المرة الأولى التي أدخل فيها إليه، رغم أنني أتيت مرارًا.

وأنا في طريقي إلى تلك الغرفة، فُتح الباب فجأة، وخرج منه نيار. لم ينظر إليّ، وكان الغضب يشتعل في عينيه... والدماء تسيل من يديه.

اتسعت عيناي رعبًا مما رأيته. كان منظره مخيفًا للغاية!

بان:
خطوة... خطوتان... ثلاث خطوات... أربع خطوات...
فتحت الباب.
الجثة على الجانب. الدماء تغطي الأرض.
أسقطت حقيبتي، وبينما كنت أمسح، لفت انتباهي شيء صغير... قطعة من سوار مقطوع، يشبه تمامًا ذاك الذي كان يملكه ساجي.
تجمدت مكاني. تصاعد التوتر بداخلي، وقلبي ينبض بجنون. رفعت نظري بصعوبة نحو الجثة، ثم نظرت حولي... تراجعت خطوة، ثم خطوت للأمام بحذر، وساقاي ترتعشان بشكل مؤلم.

مددت يدي المرتجفة، ورفعت الغطاء بخفة...
ليتني لم أفعل.
كان هو.
أخي.
ساجي.
انهارت قدماي وسقطت أرضًا، أحدق به برعب، أنفاسي متقطعة، تكاد تختفي... هذه الدماء... إنها دماء أخي...
ذلك الحقير... قتله...
مددت يدي المرتعشة، أمسكت وجهه بين كفّي، وبكيت بصمت... لم أستطع الصراخ، لم أستطع حتى التنفس... أردت أن يكون هذا مجرد كابوس، أردت أن أستيقظ منه... لكنني لم أفعل.
لأن الأحلام لم تكن يومًا كوابيسي، بل كان واقعي هو الكابوس الأكثر قبحًا... دائمًا.

فتح الباب فجأة بقوة، لينظر إلي ذلك الرجل بينما كنت ممسكة بجثمان أخي. الدموع تنهمر على خديّ، ويداي ترتعشان. ثم أغلق الباب خلفه فجأة، وأخفض رأسه للأسفل.

لم أهتم لوجوده، عدت ببصري إلى ساجي. كان سببي الوحيد لكي أعيش. كان اخر ما تركه لي والديّ من رائحتهما، فكلما اشتقت لهما، كان وجود ساجي هو الشيء الوحيد الذي يهدئ قلبي. كان أخي الصغير، فتاي الطائش، سندي وملجأي. كان طفلي الذي عشت لأحميه، لكنني وقفت عاجزة أمام قسوة العالم عندما امتدت يد الغدر لتسرقه مني.

لم يكن موته مجرد رحيل، بل كان اغتيالًا لكل أمان كنت أشعر به، وتمزيقًا لوعد قطعته لنفسي بأنني سأبقيه آمنًا.

انهارت بان من كثرة البكاء، وكان الرجل لا يزال واقفًا. وبعد مرور ما يقارب العشر دقائق، تقدم خطوة إلى الأمام، وأعاد الغطاء على وجه ساجي محاولًا أخذ الجثة.

نظرت إليه بان بغضب وصرامة وقالت:

"إلى أين ستأخذه؟"

نظر إليها بهدوء وقال:
"الأمر ليس بيدي."
فصرخت قائلة:
"لن أسمح لك بذلك!"
دفعها حتى لطخت الدماء يديها، ثم أخذ الجثة. قبل أن يخرج، قال لها:
"أنا آسف."
ثم أغلق الباب خلفه.

نظرت بان بدهشة إلى ما حدث، ثم أعادت نظرها إلى الدماء التي على يديها. في هذه المرة، لم تستطع البكاء أكثر، فالمرارة والغصة كانت تمنعها. الضغينة ملأت جوفها، تريد الانتقام، تريد أخذ حق أخيها، وحقها، وحق والديها.

نهضت، وبدأت تمسح الدماء. تمسح دماء أخيها الذي قتله الرجل الذي تعمل لصالحه. وعندما انتهت، نظرت إلى الغرفة مرة أخرى، لكنها لم تستطع أن تنسى ما شاهدته قبل ساعة. وقبل أن تخرج، أقسمت وعيناها ممتلئتان بدموع الحرقة والقهر بأنها ستنتقم.

وصعدت إلى الأعلى، ولسوء حظها، كان أول من قابلته هو نيار.
قال نيار بنبرة هادئة، لكنها تحمل ثقلًا مخيفًا:
"لِمَ تأخرتِ؟"
نظَرت إليه ببرود، لكنها كانت تخفي فى داخلها بركانًا من الغضب والقهر.
ثمّ أجابت بصوت خالٍ من أي مشاعر:
"أعتذر."
نهض نيار من مكانه، وتقدم نحوها، ثم مدّ يده لمصافحتها قائلًا:
"أقدّر جهودك هنا، لا شك أن ذلك بسبب حب زوجتي لكِ."
حبها لي؟! هل يهزأُ بيَ؟!

وكأن الصدمة لا تكفي، بل يريدني أيضًا أن أصافحه! هل يجب علىّ أن أصافح الرجل الذي قتل أغلى ما أملك؟!

ترددت، لكن بعد لحظات، مددت يدي رغم أنها كانت ترتعش، وصافحته...

نعم، لقد صافحت عدوي. صافحت قاتل أخي.

ثم خرجت من المنزل بسرعة، وما إن ابتعدت، حتى نظرت إلى يدها باشمئزاز. تمنيت لو كان بإمكانى أن أقطع يدي التي صافحته بها!

ها قد عدت إلى المنزل من جديد... لكنني لم أعد كما كنت. عدت مكسورة، عدت وحيدة، وعدت تعيسة.

لا أستطيع أن أصدق ما حدث لي... أنظر إلى غرفة الجلوس، فتتراءى لي ضحكاتنا، وأحاديثنا الطويلة التي كانت تملأ المكان دفئًا. أنظر إلى طاولة المائدة، فتعود إليّ كلماتك عن مدى لذة طهوي، وكيف كنت تقول إنه يشبه طعام أمي.

ساقاي حملتاني بلا وعي إلى غرفتك... هناك حيث ثيابك، فراشك، كل مقتنياتك التي تحمل رائحتك. رحلت فجأة، ولم أتمكن حتى من توديعك... رأيتك صباح ذلك اليوم تذهب إلى المدرسة، ولكن، لماذا لم تعد؟

أدارت عينيها في كل زاوية من الغرفة، وكأنها تبحث عنه، لكنها لم تجد سوى الفراغ القاتل. لم تعد قادرة على التماسك أكثر... فمن كان سبب قوتها، عزيمتها، رحل.

سقطت على الأرض، وانهارت بالبكاء، فاضت دموعها كالبحر الهائج، شهقاتها دوت في المكان، وصوتها المرتجف كان يردد اسمه بلا توقف. ذلك اليوم كان الأصعب عليها منذ وفاة والديها. بكت كثيرًا حتى فقدت وعيها... ولم يكن هناك أحد ليعلم بذلك....

مرّ أسبوعان على رحيل ساجى، وكأنه حدث بالأمس. لم تجفّ دموعها يومًا، وكلما سمعت صوت إشعار الهاتف أو رنين الجرس، ظنت أنه عاد. صحيح أن الحزن واليأس هيمنَا عليها، لكن ما كان خلفهما كان أعظم... الضغينة اشتعلت في جوفها.

نهضت، ارتدت أجمل ملابسها وأكثرها أنوثة، تزينت بعناية، ثم توجهت إلى منزل عدوها اللدود.

وقفت أمام الباب، استذكرت كل ما حدث لها، كل ما حدث لأخيها، لكن عوضًا عن البكاء، ازدادت حقدًا وبغضًا.

طرقت الباب، وبعد لحظات، فتحت لها وجد بابتسامة دافئة:

"بان! أهلًا وسهلًا، لقد أسعدتني مكالمتك كثيرًا. لقد اخترتِ الصواب بالفعل!"

الصواب؟!

رسمت بان ابتسامة هادئة على شفتيها، وقالت بصوت ناعم:

"وهل لي أن أرفض طلبكِ، سيدتي؟ العمل هنا سيسعدني كثيرًا."

أيعقل هذا؟! بان... وافقت على العمل في منزل قاتل أخيها؟!

جلست وجد على الأريكة، وكانت بان مقابلها.
قالت وجد: "سأعلمك بما ستفعلينه في المنزل."
أومأت بان بصمت.
تابعت وجد:"حسنًا، الأعمال المنزلية المعتادة من تكنيس وغسيل وما إلى ذلك. أنت أدرى منى بهذه الأمور، فأنا لست معتَادة على أيّ منها. وأيضًا، قد تضطرين إلى الاعتناء قليلًا بسليم، طفلي. إنه في الرابعة من عمره، مزعج لكنه لطيف، فلا تقلقي."
بان في نفسها: أراهن أن كلمة "لطيف" ليست إلا مجاملة، وأنها بالكاد تعتني به أصلًا.

ابتسمت بان وقالت: "لا تقلقي، سأقوم بذلك، حتى أنني يمكنني طهو الطعام إن أردتِ."

ابتسمت وجد قَائلة: "هذا لطف منك. على أي حال، تعالي لأريكِ غرفتك."

صعدت كل من وجد وبانَ إلى الطابق العلوي، حيث كانت هناك غرفة وجد ونيار، وغرفة سليم، وغُرفة ثالثة خُصصت لبان.

حين دخلت بان غرفتها، دهشت قليلًا، فلم تكن تتوقع أن تُمنح غرفة بهذه الفخامة، لكنها سرعان ما تذكرت أن هذه الأموال ليست إلا من الحرام.

بان: "هذه الغرفة جميلة للغاية."
وجد بابتسامة فخورة: "آه، بالطبع، طلبت لكِ أفضل الأثاث."
ضحكت بان بسخرية خفيفة: "استثناء، ها؟"
ضحكت وجد بخفة: "نوعًا ما... على أي حال، سأتركِ الآن لترتبي أغراضكِ، وبعدها يمكنكِ إعداد الطعام."

خرجت وجد، لتبقى بان وحدها. تمنت لو بإمكانها أن تشعل النار في المنزل بمن فيه، تريد التخلص منهم بأسرع فرصة، لكنها تعلم أن عليها التأني. لا تعرف كيف ستنتقم أو ما ستفعل تحديدًا، لكنها تريد أن تشفي غليلها، أن تجعله يتمنى الموت، أن تذيقه ألم الفقد بأشد صوره. **هذه الضغينة لا تنطفئ ولا تهدأ إلا بأقسى انتقام.**

غيّرت ثيابها ونزلت إلى المطبخ لإعداد الطعام، وضعت تلك العلبة البيضاء في جيبها. هل ما أفعله صحيح؟ هل سأقتله اليوم وأضع السم في طعامه؟ ولكن... ستأكل منه وجد وابنها سليم أيضًا!

توالت الأفكار في ذهنها، لكن الحقد أيقظ الشيطان داخلها، ولم تأبه بشيء. نظرت حولها لتتأكد من عدم وجود أحد، وفي اللحظة التي كانت ستضع بها السم، قررت التراجع. أغلقت العلبة وأعادتها إلى جيبها، ثم ابتسمت بلا سبب وقالت بصوت منخفض: "قتلك بهذه السرعة سيكون راحة لك يا نيار."

سكبت الطعام وأخذته إلى طاولة المائدة، حيث كانت وجد جالسة وبجانبها طفل صغير، لا بد أنه سليم. أشفقَت عليه، فهو بين عائلة منحطة. وحين اتجهت لوضع آخر طبق، رأت نيار يصل إلى المنزل، كان يلاعب ابنه سليم ويقرص وجنته. من يراه يظن أنه رجل طيب القلب، حسن الخلق!

لم تقوَ على النظر إليه حتى، كانت تشمئز منه، تبغضه بشدة!

كانت على وشك العودة إلى غرفتها حين قاطعها صوته: "بان."

استدارت إليه قائلة: "نعم، سيدي؟"
أشار لها بالاقتراب من طاولة المائدة وقال: "كُلي من الطعام."
هل ما سمعته صحيح؟ لماذا؟
قالت بان بدهشة: "عفوًا؟"
نظرت وجد إليه باستخراب وقالت: "هل تقصد أن تتناول الطعام معنا؟"

رفع نيار حاجبيه للأعلى وهو يرمق بان، ثم نظر إلى زوجته قائلاً: "وما أدراكِ أن الطعام ليس مسمومًا؟"

ضربت وجد يده بخفة وقالت مستنكرة: "عزيزي، ما الذي تقوله؟!"

تقدّمت بكل هدوء، أخذت الملعقة وتناولت لقمة من الطعام.

كانت نظرات نيار يعتليها التحدى والشراسة، بينما وجد بدت مندهشة، أما سليم فلم يكن يفهم ما الذي يحدث حتى.

بان، بصوت هادئ ولكن ثابت: "أيمكنني الذهاب الآن؟"

نيار، بعد لحظة صمت: "اذهبي."

ذهبت بان، وبقيت وجد ونيار وابنهما وحدهم على طاولة المائدة. وضع نيار الطعام لابنه، ليبدأ بتناوله.
سليم: "بابا، الطعام لذيذ!"
نيار: "تناول الطعام جيدًا لتكبر وتصبح رجل عصابات قوي."
ثم زاح نظره ليرى عبوس وجد.
تنهد وترك الملعقة، ثم نظر إليها: "ما بكِ؟"
وجد: "ما الذي فعلته قبل قليل؟"
نيار: "ماذا؟"

وجد: "نيار، لماذا قلت لها شيئًا كهذا؟ أنت أكثر من يثق بتلك الفتاة، ولو أنك لا تثق بها لما جعلتها..."
رمقها نيار بحدة قبل أن تكمل كلامها، مما جعلها تصمت.
نيار: "وهل برأيك يمكننا مناقشة أمر كهذا هنا والآن؟"
وجد: "لا."
نيار: "إذن، فلا داعي لذلك. لا أثق بأحد مهما كان... سوى بك، حسنًا؟"

وجد: "وأدهم؟ ألا تثق به؟"
تنهد نيار مجددًا، ثم قال: "من الممكن أن أثق بأدهم، فقد عمل معي منذ مراهقته. أما بان... لا بأس بها، لكنها تبقى امرأة، والنساء خائنات بطبعهن، لذلك من المبكر الوثوق بها."
قهقهت وجد وقالت: "أنا سيدة النساء، ولست خائنة!"
نيار: "لا تقارني نفسكِ بهن، أنتِ ملاك."
احمرت وجنتا وجد، وأكملا طعامهما.
بعد ذلك، اختفى نيار، وصعدت وجد إلى غرفتها، بينما ذهب سليم مع المربية. لكن للأسف، اليوم هو اليوم الأخير للمربية في العمل، وبعد ذلك ستضطر بان إلى تولي مهمة الاعتناء به.

بعدما أنهت بان ترتيب أغراضها في الغرفة، لم تستطع البقاء فيها طويلًا، فقررت النزول إلى المطبخ. كانت بحاجة إلى فعل أي شيء يلهيها عن أفكارها المشتعلة بالانتقام.

عندما وصلت إلى المطبخ، أخذت نفسًا عميقًا وبدأت بتنظيف الصحون، بينما يدور سؤال فى عقلها: "يا ترى، ماذا كان سيحدث لو وضعت ذلك السم حقًا؟ لكنتُ في ورطة... الحمد لله أنني تراجعت!"

انتهت من تنظيف الصحون، وصعدت إلى غرفتها محاولةً النوم. كان من الصعب جدًا عليها أن تغفو في منزل قاتل أخيها، لكن التعب غلبها.

استيقظت بان في منتصف الليل وهي تشعر بجفاف في حلقها، فقررت النزول إلى المطبخ لشرب الماء. صبّت كوبًا من الماء وأخذت ترتشفه بهدوء، لكن فجأة، التقطت أذناها صوتًا قادمًا من الممر المؤدي إلى تلك الغرفة المشؤومة.

توقفت عن الشرب، تجمدت للحظة، ثم دفعها فضولها لتتبع مصدر الصوت. كانت خطواتها حذرة، وكلما اقتربت أكثر، باتت تسمع صوت رجل يصرخ بشدة. لكن بسبب العزل القوي، لم يكن الصوت واضحًا، بل خافتًا بالكاد يُسمع.

عندما وصلت قرب الباب، كانت على وشك أن تميل أكثر لتسمع بشكل أفضل، وفجأة، شعرت بيد قوية تطبق على فمها وتسحبها بسرعة إلى الأعلى.
حاولت أن تصرخ، لكن الشخص الذي أمسك بها أسكتها على الفور. شهقت عندما تعرفت عليه—إنه ذلك الشاب الذي يأخذ الجثث! عندما نظرت في عينيه، تذكرت المشهد القاسي حين أخذ جثة أخيها أمامها.
قال بصوت منخفض وحاد:
"ما الذي تفعلينه هنا؟ هل تريدين الموت مثله؟"
تحت تأثير الصدمة، لم تعرف كيف ترد، اكتفت بالتحديق به بعينين واسعتين.
كرر كلامه بتحذير أشد:
"لا تأتي إلى هنا مجددًا."

حاولت استعادة رباطة جأشها، فتمتمت بسخرية:
"تشه! ومن أنت لأرد عليك؟ وأيضًا إنني أعمل هنا."
اقترب منها أكثر، نظر إليها بحدة وكأنه يقرأ أفكارها، ثم همس:
"لا تخاطري بحياتك... أعرف كل شيء."
اتسعت عيناها بدهشة... ماذا؟! ماذا يعرف؟!
هل يعقل أنه يدرك رغبتها الجامحة في الانتقام؟
لكن قبل أن تتمكن من قول أي شيء، استدار ورحل دون أن يضيف كلمة أخرى، تاركًا إياها متسمّرة في مكانها، قلبها ينبض بقوة، وأفكارها تتسابق بلا توقف.

مر أسبوعان على بقائي في هذا المنزل، أعمل كالمعتاد، أعتني بسليم، وأطهو الطعام، وفي داخلي تتأجج رغبة الانتقام. أترقب اللحظة المناسبة لتنفذ خطتي.

في صباح هذا اليوم، وصلني إشعار على الهاتف من رقم غريب. فتحته وقرأت ما كُتب:

.....: مرحبًا

رددت على الرسالة: من؟

.....: بان، صحيح؟

من هذا، وكيف يعرف اسمي؟

بان: قلت من؟

.....: أنا الرجل الذي قابلته ليلة البارحة، الرجل الذي يعرف عنك أكثر مما تظنين.

بان: وما الذي تريده؟
.....: بداية، اسمي أدهم، تعالي إلى الحديقة الخلفية ولا تجذبي الانتباه.
تركت هاتفي ونهضت بسرعة، متوجهة إلى الحديقة الخلفية دون أن يلاحظ أحد.
رأيته متكئًا على الجدار، ينتظرني.
وقفت أمامه وقلت: ما الذى تريده؟
استقام وقال: بان، ما الذي تخططين لفعله؟
بان: ما الذي تقصده؟
تنهد ثم قال: لما تعملين هنا وأنتِ تعلمين أن نيار قتل أخاكِ؟

توسعت حدقتاي، وصدمت: ماذا؟ أدهم: لا تنكرين، أنا أعرف كل شيء.
بان: ولماذا تقول ذلك هنا؟ ماذا إن سمعك أحد؟
أدهم: لا أحد يأتي إلى هنا، ونيار في العمل. أرسلني لاحضر شيئًا ما. حاولت معرفة ما الذي تفكرين به، لكن لم أتمكن من معرفة شيء.

سكت قليلاً ثم قال: أنت هنا للانتقام حتما، ولكن كيف ستنتقمين؟
بان: وأنت، لماذا هنا؟ هل تبغض نيار؟
أدهم: فتاة ذكية.
بان: بالطبع، فلو أنك مخلص له لما أخفيت عنه حقيقة أني شقيقة أحد ضحاياه.
بان: ولكن كيف عرفت بأني شقيقته؟
أدهم: عندما رأيتك بتلك الحالة في ذلك اليوم، ظننت أنه أخاكِ أو حبيبكِ أو زوجك. لذلك بحثت قليلاً عنك وعرفت أنه شقيقكِ الوحيد.
بان: وما الذي ستفعله؟

أدهم: أنا أريد الانتقام أيضًا منه. خرب حياتي ودمرها منذ أن كنت في السابعة عشر من عمري. ورطني في أعماله القذرة، وعندما حاولت الهرب منه، هددني بأنه سيحرق منزل عائلتي وسيتأكد من أن تأكل النار جسدهم. وها قد مر على عملي معه ثلاثة عشر عامًا، ولم تنطفئ نار كرهي له إلا حتى أنتقم منه. فهل ستساعديني بما أن لنا نفس الهدف؟

بان: ولم لا؟ بالطبع، فأنا أريد أن أراه يتعذب كذلك.
أدهم: وما هي خطتك؟
بان: لدي خطة، ولكن عليّ أن ارتبها بشكل جيد. وأيضًا يجب عليّ أن أجعلهم يثقون بي.
أدهم: حسنًا، على أي حال، راسليني إن أردتِ شيئًا. سأذهب الآن.
بان: حسنًا.

عدت إلى المنزل، ولكن هذه المرة، رأتني وجد.
وجد: بان، أين كنتِ؟
بان: سيدتي، لقد خرجت لأستنشق بعض الهواء.
وجد: أه، جيد. أتعلمين أن سليم يحبك كثيرًا؟
بان: وأنا أحبه أيضًا.
وجد: لم أرَ سليم سعيدًا ومبتهجًا مثلما هو حين يلعب معك.
بان (بصمت): بالطبع، فأنت لم تعتني به قط.
بان: هذا شرف لي، شكرًا لكِ سيدتي. سأحرص دائمًا على جعله سعيدًا. والآن، سأذهب لأراه قليلاً.

صعدت إلى غرفة سليم لأراه يلعب بمفرده، وعندما انتبه لوجودي ركض نحوي واحتضنني.

سليم: بان!

بان: كيف حالك يا سليم؟

سليم: أنا بخير، العبِ معي قليلاً.

بان: حسنًا، أوه، إنها سيارة جميلة!

سليم: نعم، لقد أحضرها لي أبي.

تلاشت ابتسامتي للحظة، وقلت في نفسي: "هذا هو الرجل الذي قتل أخي!"

بقيت بان تلاعب سليم لمدة ساعة كاملة حتى قاطع اندماجهم دخول نيار.

نيار: بطلي الصغير!

ركض سليم لحضن والده وهو يضحك بصوت عالٍ من السرور.

سليم: بابا، أنا ألعب!
نيار: رائع يا صغيري، مع الخالة بان.
سليم: نعم، إنها لطيفة ودائمًا ما تلعب معي. أنا أحبها.

ابتسمت بان على كلماته اللطيفة، ثم نظر نيار إليها وقال:
نيار: أشكرك على العناية بطفلي.

هل يجب أن أبتسم له؟ حتى أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك كذبًا، ولكن يجب عليّ فعل ذلك لكي لا يشك بي.
بان: هذا واجبي، يا سيد نيار.
نيار: على أي حال، ليس من الضروري أن تقولي لي "سيد نيار"، فقط قولي اسمي بلا شيء.
ذلك المتغطرس يقول كلامًا كهذا؟!

نيار: حسنًا يا سليم، يجب أن أذهب الآن، حسنًا؟

سليم: حسنًا، أبي.

أنزله من حضنه ثم خرج من الغرفة.

ها قد مرَّ شهرٌ كاملٌ على عمل بان في منزل نيار. في كلِّ يوم تزداد ثقتهم بها، ويزداد حبهم لها، بينما هي كانت تزداد كرهًا وحقدًا ثانيةً بعد ثانية.

وأخيرًا، توصَّلت للخطة التي تريد تنفيذها، فأرسلت رسالة نصية لأدهم لتلتقي به وتخبره بتفاصيلها. وما إن سمعها، حتى اعتلت ملامحه الصدمة.

أدهم: بان، أظنُّ أنكِ جُننتِ، لا، بل بالطبع جُننت!

بان: أنا قلتُ ما عندي، شئتَ أم أبيتَ، سأقوم بذلك الأمر. فهل ستساعدني لتلفيق تهمة الخيانة ضد وجد؟

كان أدهم على وشك الاعتراض مجددًا، فقاطعته بان قائلة: كنْ رجلاً لمرةٍ واحدةٍ ونفّذ كلمتي!

أدهم: حسنًا... متى ستخرج وجد؟

بان: وجد تخرج كلَّ يوم سبت، ولكن يجب عليَّ أن أثير شكوك نيار هذه الفترة كي يُطلِّقها بسرعة.

أدهم: ولماذا تريدين أن يُطلِّقها؟

بان: لأحرق فؤاده... فإنه يحبها.

أدهم: وهل هذا كافٍ؟

بان: لا، ولكن لا بأسً بالقليل من التسلية.

بان: على أي حال، سأذهب الآن.

ثم استدارت بان وعادت أدراجها، بينما بقي أدهم يراقبها، متسائلًا عن مدى جنونها، وهل ستنجح خطتها فعلًا؟

عادت بان إلى المنزل، وتوجهت إلى غرفة سليم كعادتها، تلعب معه وتلهيه. لم يمر وقت طويل حتى دخل نيار، كالعادة، ليلاعب ابنه ويقبّله، ثم خرج دون أن يلاحظ ما تخفيه بان خلف تلك الابتسامة الهادئة.

في كل يوم، كانت بان تحرص على زرع الشك في قلبه، تنصب الفخاخ بذكاء، ثم تستمتع بصوت شجارهما المتكرر.

كانت ترى الشرخ في علاقتهما يزداد اتساعًا، وترى الحيرة في عيني وجد والريبة في تصرفات نيار.
وها قد حلَّ اليوم المنتظر. كانت العلاقة بين نيار ووجد في أسوأ حالاتها، التوتر يخيم على المنزل، وكأن لعنةً أصابته. وأخيرًا، نطقت وجد بالكلمة التي كانت بان تنتظرها منذ البداية وطلبت الطلاق!

في أحد الأيام، بينما كانت بان منشغلة في ترتيب الطاولة بعد الغداء، دخل نيار إلى المطبخ بخطوات هادئة، لكن ملامحه كانت متجهمة، وعيناه تضيقان بارتياب واضح. وقف بالقرب منها، متكئًا على الطاولة، ثم قال بصوت خافت لكنه حاد:
نيار: "بان، أريد أن أسألك عن شيء، وأريد إجابة صادقة."
رفعت رأسها نحوه متصنعة الدهشة، ثم أجابت بهدوء: "بالطبع، سيدي، تفضل."
حدق بها للحظات قبل أن يسأل بنبرة يغلب عليها الشك: "هل لاحظتِ أن وجد تخرج كثيرًا في الآونة الأخيرة؟"

اتسعت عينا بان قليلاً وكأنها تحاول استيعاب سؤاله، ثم عقدت حاجبيها بتردد وقالت: "همم... في الواقع، نعم، لقد أصبحت تخرج كثيرًا هذه الأيام."

راقبت بان كيف تصلبت ملامحه قليلاً، وكأن كلماتها أيقظت شكوكه أكثر. فأردفت بسرعة، متظاهرة بالحيرة:

"لم أفكر في الأمر من قبل... هل هناك شيء يقلقك يا سيدي؟"

ظل نيار صامتًا للحظات، كأنه يحاول قراءة ما خلف كلماتها، قبل أن يزفر ببطء ويشيح بنظره بعيدًا. ثم استدار وخرج دون أن يرد، تاركًا بان تراقب ظهره وهو يغادر، وابتسامة خفية ترتسم على شفتيها، فقد كان كل شيء يسير كما خططت تمامًا.

في هذا اليوم، كانت نشوة الانتصار تسيطر على بان، فها قد اقتربت من الانتقام أخيرًا. خرجت وجد من المنزل كعادتها، وفى الوقت ذاته، كان أدهم ينفذ خطتهما.
أرسلت بان رسالة نصية لأدهم:
"هل تمت المهمة؟"
وصلها الرد سريعًا:
"لم نصل بعد، نحن نلحق بها خفية، وحين تتم المهمة سأخبرك."
أغلقت بان الهاتف وهي تفكر، إلى أين سيذهب سليم بعد الطلاق؟ هل ستأخذه والدته؟ وإن حدث ذلك، فربما يكون سببًا في عودتهما لبعضهما مجددًا. كان عليها التخلص من هذا العائق بأي وسيلة.

تحكّم بها الشيطان في تلك اللحظة،
فاتجهت نحو غرفة سليم، وجدته يلعب
بسياراته الصغيرة ببراءة.
رفع رأسه فور رؤيتها وابتسم بحماس:
"بان! هل تريدين اللعب معي؟"
نظرت إليه بصمت، ثم قالت بصوت
هادئ:
"لا، لا أريد."
قطّب حاجبيه الصغيرين وقال بحزن:
"لماذا؟"
انحنت نحوه مبتسمة وقالت:
"ألا تريد أن تلعب لعبة أكثر متعة
وإثارة؟"

تحمّس سليم على الفور وقال:
"نعم! نعم! ما هي؟"
أشارت بان إلى الشرفة العالية المطلة
على الحديقة وقالت:
"أترى الشرفة؟ من هناك يمكنك رؤية
الغيوم والحديقة بوضوح شديد."

نظر سليم نحوها بعيونه البريئة، ثم قال:
"لكن أمي وأبي لا يسمحان لي بالاقتراب منها."
تنهدت بان وهزّت رأسها بأسى:
"يا لك من مسكين! لقد فاتك الكثير... هل تريد أن أريك المنظر بنفسي؟"
أشرق وجهه فرحًا وقفز واقفًا:
"نعم! نعم! أريد ذلك!"
أمسكت بان بيده الصغيرة وسارت به نحو الشرفة، رفعت جسده ووضعته عند الحافة ليتمكن من النظر. للحظة، شعر بالخوف فتراجع قليلًا قائلًا بصوت مرتجف:
"بان... في الحقيقة، لا أري—"

لكن جملته لم تكتمل، فقد دفعته
بان بقوة دون أن تمنحه فرصة
للعودة. سقط الصغير بسرعة،
وارتطم جسده بالأرض، لتحدث
ضربة مدوية. بقيت بان واقفة،
تتأمل جسده الهامد أسفلها،
وضعت يدها على فمها لا من
الصدمة، بل لتخفي ضحكتها.
تمتمت ببرود:
"ذنبك الوحيد أنك ابنه."
وفي الوقت ذاته، وصل إشعار إلى
هاتف نيار برسالة من رقم مجهول،
فتحها ليرى صورة زوجته بجانب
رجل آخر...

مرّت نصف ساعة حتى دخلت وجد
إلى المنزل، صعدت إلى الأعلى
تبحث عن سليم، دون أن تدرك أن
طفلها الذي لم تعتنِ به يومًا قد
فارق الحياة في حديقة منزلها.
دخلت غرفته لترى بان جالسة على
الأرض أمام الشرفة، شعرها
منكوش، وملامحها تفيض
باضطراب مصطنع.
تقدمت وجد بخطوات متسارعة
وقالت بقلق:
"بان! ما بكِ؟"

رفعت بان رأسها بسرعة، وعيناها
متسعتان بصدمة مزيفة، ثم صرخت
بصوت مرتجف:
"كيف لأم أن تفعل هذا بابنها؟ ها؟!"
تجمدت وجد فى مكانها، تشوّشت
أفكارها للحظة قبل أن تتمتم:
"ما الذي تقصدينه؟"
نهضت بان من مكانها، نظرت إليها
بحدة ثم صاحت:
"لِمَ دفعته من الشرفة؟! لِمَ قتلتِ
ابنك؟!"

اتسعت عينا وجد بذهول، وأحسّت ببرودة قاسية تسرى فى أوصالها، لكن قبل أن تنطق بحرف، قاطعها صوت نيار الغاضب الذي دخل فجأة، وقد التقطت أذناه آخر كلمات بان.

تقدّم بخطوات ثقيلة، صوته كفحيح الأفعى:

"ما الذي قلتهِ؟! أعيدي ما قلتِ الآن!"

استدارت وجد إليه بارتباك، لكن الكلمات خانتها، لم تستطع النطق، لم تستطع سوى متابعة نظراته القاتلة.

التفتت ببطء نحو الشرفة، ثم تجمدت أنفاسها... هناك، في الأسفل، رأته. جسده الصغير ممدد بلا حراك، وجهه البريء الذي اعتاد أن يبتسم لها لم يعد يحمل أي تعبير.

صرخت... صرخة هزّت أرجاء المنزل، صرخة أم فقدت ابنها أمام عينيها دون أن تفهم كيف ولماذا.

لكن صرختها لم تؤثر في نيار، لم تحرّك فيه سوى غضب جامح، غضب رجل فقد ابنه وخانته زوجته في الوقت ذاته.

اندفع نحوها، أمسكها من شعرها
بعنف، جعلها تصرخ بألم، لكن الألم
الذي شعر به كان أقوى.
صوتها يملأ المكان، توسلاتها لا تجد
من يسمعها.
سحبها بقسوة، جرّها عبر الممرات وهو
يتنفس بغضب، وعيناه تشتعلان
بجنون.
نزل بها إلى تلك الغرفة المشؤومة،
دفعها إلى الداخل، وأغلق الباب خلفه
بصوت مخيف...

دفعها نيار على الأرض بوحشية، وعينيه تشتعلان بالغضب، وصرخ بصوت عالي:
"اللّعنة عليكِ! وثقت بكِ وجعلتكِ أماً لطفلي، وفوق هذا كله خنتيني؟ وقتلتِ ابني!"
أمسك نيار بوجنتيها بقوة، وجهه ملىء بالاحتقار، ثم قال:
"تبكين على ماذا؟ هل أنتِ أماً أصلاً؟!"
كانت وجنتاها تنزفان دماءً من قوة قبضته، وهي تكاد لا تجد ما ترد به، لكنها قالت بصوت متقطع:

"نيار، صدقني، أنا لم..."
لكنها لم تكمل الجملة قبل أن
يدفعها مرة أخرى، وركلها بقوة على
بطنها. كانت الألم يعصف بها، لكن
أكبر ما شعرت به كان الخوف من
النهاية. رفع نيار سلاحه، ووجهه
نحوها، وقلبه يزداد غليانًا.

"كنتِ زوجة لي، ولكنكِ تعديتِ حدودكِ، وسلبتَ منى أغلى ما أملك!"
كانت دموعها تنهمر بلا إرادة، لكن أذنه لم تسمع سوى صوت غضبه، وصراخه الذي كان يصرخ فيه على واقع مؤلم. كان كل شيء يتطاير حولها، لكن لم تجد كلمات لتوقف هذا الجنون.
"نيار، أرجوك، اسمعني أولاً!"
لكن نيار كان يزداد انهيارًا، وكانت عيناه ترفضان إيقاف دموعهما.

لأول مرة، شعر بالضعف، لأول مرة كانت يده ترتجف، وكان الصراع بينه وبين نفسه يعصف به. فبالعادة كان يقتل بلا مشاعر، ولكن اليوم كان كل شيء مختلف.

أغمض عينيه لحظة، وفجأة تذكر صورة سليم، وجهه البريء الميت في الحديقة، ثم... ضغط على الزناد.

كان الصوت الصادر عن الطلقة هو آخر ما سمع في تلك الغرفة، ثم خرج نيار وهو منهار، متجهاً نحو الحديقة بهدوء، ليذهب إلى جسد صغيره سليم، الذي لا يزال ملقى هناك.

عينيه كانت مليئة بالدموع، وقلبه محروق بالندم والألم. اقترب منه، أمسك بجسده، وضمه إلى صدره، وبدأ يبكي بألم عميق لأول مرة في حياته. كان يصرخ باسم ابنه بشدة:

"سليم!"

وكان كل هذا يحدث أمام أنظارها، بان. كانت تقف هناك، تتأمل الموقف وكأنها تشاهد فيلمًا كوميديًا، لكن قلبها كان يغلي من المتعة التي تشعر بها لرؤية نيار ضعيفًا.

ابتسمت بابتسامة خبيثة ثم مشت نحوه، مقلدة دموعها لتخفى مشاعرها الحقيقية، حتى لا يشك فيها.
وضعت يدها على كتفه برفق، مدعية بأنها تشعر بألمه، وأنها بجانبه حتى في أسوأ لحظاته.
"نيار، أرجوك، هذا يكفي..."
لأول مرة في حياته، انهار نيار بشكل كامل، وهو يقف وسط الحديقة، يحمل جسد ابنه بين يديه، ويدرك أن لا شيء يمكنه أن يعيده أو يعيد الزمان.

الضغينة، ذلك السم القاتل الذي يتغلغل في أعماق النفس، ليست مجرد شعور عابر، بل هي قوة خبيثة تنبت في الظلام، تغذيها مشاعر الكراهية والانتقام. حينما نحمل الضغينة في قلوبنا، نصبح أسرى لدوامة من الشر الكامن بداخلنا، شر يستيقظ في أحلك اللحظات ليحكم قبضته علينا. إنه الشر الذي يشوه إنسانيتنا، يسلبنا نور الروح، ويغرقنا في ظلال الانتقام الشنيع.

الضغينة تدفعنا إلى أفعال لا نتصورها في أحوالنا الطبيعية، تغذي فينا رغبة لا تُشبع في إلحاق الأذى، رغبة في رؤية الآخر يتألم، ظناً منا أن ذلك سيجلب لنا الراحة. لكنها لا تفعل سوى إشعال نيران الحقد أكثر فأكثر، فتلتهم ما تبقى من إنسانيتنا، وتتركنا فارغين من الداخل، مشوهين بفعل نوازع الشر التي أطلقنا العنان لها.

في قبضة الضغينة، نفقد السيطرة على أنفسنا، نصبح أدوات للشر، ننقاد وراءه دون وعي، ظناً منا أننا نستعيد كرامتنا أو حقنا. ولكن في الواقع، نحن ندمر أنفسنا، نفقد النقاء الذي كنا نحمله يوماً، ونتحول إلى ظل باهت لما كنا عليه. إن الانتقام لا يعيد الحقوق، بل يغذي الوحش الذي في داخلنا، ويجعلنا أعداء لأنفسنا قبل أن نكون أعداء للآخرين.....

مرَّ شهرٌ كاملٌ على ما حدث، والهدوء يعم أرجاء المنزل. اختفت ضحكات سليم ودلال وجد، تلاشت ابتسامة نيار، وبهتت هالته القوية. حتى أدهم، لم يعد كما كان، فقد عاتب بان بشدة، لم يتوقع منها أن تتخلَّص من سليم، ذاك الطفل الصغير الذي لم يكن جزءًا مما اتفقا عليه.
أما بان، فكانت الوحيدة التي تشعر بالسعادة، تقترب شيئًا فشيئًا من مبتغاها، وكأن شيئًا لم يكن.

في ذلك اليوم، جلست بان في غرفة المعيشة تشاهد التلفاز بصمت، حتى وصلها إشعار على هاتفها. كان من أدهم، الذي لم يراسلها طيلة هذا الشهر.

أدهم: قابليني خلف الحديقة... كالمعتاد.
نهضت فورًا وذهبت إليه، رأته واقفًا
ينتظرها. لا تعلم ما الشعور الذي دفعها
إلى ذلك، لكنها ركضت نحوه وعانقته.
دهش أدهم في البداية، لكنه لم يلبث أن
بادلها العناق فى النهاية.
ومنذ تلك اللحظة، بدأت شرارة الحب
بالتصاعد، وكأن الأمر كان بحاجة إلى
خطوة واحدة فقط ليشتعل.
بعد ذلك الموقف، وبَّخها وعاتبها... ثم
أحبها وعشقها.
بعد ذلك الموقف، ندِمت واعتذرت... ثم
هامت به وأُغرمت.

وهكذا، بدأ كلاهما قصة حبهما بقلمٍ خُطَّ بمداد الكراهية والانتقام. فمن كان يدري أن عدوّهما المشترك سيكون السبب في لقائهما؟

الحياة غريبة بعض الشيء.

ها قد مرَّ ثلاثة أشهر على علاقتهما السرية، لكن هل ستظل هكذا إلى الأبد؟

في ذلك اليوم، دخل نيار إلى المنزل بعد يوم عمل طويل، ولأول مرة منذ فترة طويلة، ارتسمت على شفتيه ابتسامة. والسبب؟ بان. كانت ترتِّب طعام العشاء على المائدة عندما لاحظته يقف هناك، يراقبها بصمت.

بان: آه... أهلاً، سيدي.

اتجه نيار نحوها دون أن ينطق بكلمة، أمسك يديها برفق، ثم نظر إلى عينيها مباشرةً.

نيار: بان...

ارتبكت، وكأن نبضها توقف للحظة. بان: ن-نعم، سيدي؟

نيار: أنتِ الوحيدة التي أشعر بالراحة معها... وحدكِ تجعلينني أنسى همومي، تعبي، وكل شيء آخر.

شعرت بان باضطرابٍ لم تفهمه، وهَمست لنفسها: أتمنى ألّا يحصل ما يخطر ببالي... لكن ما خافت منه حدث.

نيار: بان، أنا أحبك.
حبست أنفاسها.
نيار: لكنني لا أريدك أن تكوني علاقةً عابرة.
وأنتِ أكثر من يعرف ذلك.
ازدادَت ضربات قلبها. بان: أنا... لم أفهم؟
أمعن النظر في ملامحها المرتبكة، ثم قال بكل وضوح:
نيار: بان، هل تقبلين الزواج بي؟
وكأن الزمن توقّف عند تلك اللحظة. اتسعت عيناها، وشعرت بأن العالم من حولها قد أصبح أكثر ضيقًا.
ماذا ستفعل؟ إن وافقت، فماذا عن علاقتها بأدهم؟ وإن رفضت، فمن يعلم ما الذي سيحدث؟

نيار: ألن تقولي شيئًا؟
ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم قالت بتردد:
بان: أنا... لا أعرف ما أقول، سيدي. لكن... ما رأيك أن تمهلني بعض الوقت؟
تأملها نيار قليلًا، ثم أطلق زفرة خفيفة وقال بهدوء:
نيار: آه... بالطبع.
أفلت يديها وتراجع للخلف، ثم أضاف:
نيار: سأتناول العشاء. شكرًا لكِ.
أجبرته على الابتسام، ثم استأذَنت وصعدت بسرعة إلى غرفتها.
ما إن أغلقت الباب خلفها حتى وضعت يدها على صدرها، محاولةً تهدئة قلبها الذي كاد يدوي في أرجاء المكان.

في تلك الليلة، كانت بان على
وشك إرسال رسالة إلى أدهم،
لكنها ترددت. لقاؤهما في هذا
الوقت يشكل خطرًا، وحديثهما
عبر الهاتف قد يكون أشد
خطرًا. ألقت بجسدها على
السرير، علّ النوم يأخذها بعيدًا
عن دوامة أفكارها.

في اليوم التالي:
وصلت بان إلى البحر، حيث كان أدهم ينتظرها، والابتسامة تعلو وجهه كعادته عندما يراها.
أدهم: أهلًا بكِ يا بان، اشتقتُ لكِ.
لم ترد، فقط ظلت تنظر إلى الأرض بصمت، مما أثار قلقه.
مدّ يده برفق، ورفع ذقنها بأنامله لينظر في عينيها:
أدهم: بان، ما بكِ؟
أخذت نفسًا مترددًا قبل أن تنطق:
بان: أدهم... البارحة...
أدهم: ماذا؟ تكلّمي.
حبست أنفاسها للحظة، ثم قالت بصوت بالكاد يُسمع:
بان: نيار... عرض عليّ الزواج.
اتسعت عينا أدهم، وصدمته جعلته يرفع صوته دون أن يشعر:
أدهم: ماذا؟!

بان: أخفض صوتك!
لكن الغضب كان يسيطر عليه.
أدهم: كيف تريدينني أن أخفض صوتي بحقك!
حاول أن يهدئ أنفاسه، ثم سألها بصوت أقل حدة:
أدهم: رفضته، صحيح؟
ساد الصمت بينهما لثوانٍ قبل أن تقول بهدوء:
بان: لا.
شعر وكأن الهواء قد سُحب من حوله.
أدهم: ما الذي تعنينه بـ"لا"؟!
بان: أدهم، أنا أحبك بالطبع، ولكن ماذا لو رفضتُ فطردني؟ أو فعل شيئًا آخر؟
نظر إليها وكأنها غريبة عنه، وكأنها شخص لم يعرفه من قبل

أدهم: أهذا ما يهمكِ الآن؟!
عقدت حاجبيها بغضب وقالت بحدّة:
بان: بحقك؟! أنت أكثر من يعلم ما هو هدفي!
صوته انخفض، لكنه حمل جرحًا أعمق هذه
المرة:
أدهم: وهل ستتخلين عني لأجله؟
خرجت الكلمة من شفتيها دون وعي:
بان: نعم!
كأن سهامًا مسمومة اخترقت صدره، كأن كل
شيء احترق داخله وتحول إلى رماد.
رأت كيف تبدّلت ملامحه، كيف انطفأت
عيناه في لحظة. امتلأت عيناها بالدموع،
لكنها تابعت بصوت مكسور:
بان: أنا لا أشك بحبك لي، ولا أشك بحبي لك،
لكن يجب عليّ إكمال ما بدأته.

ظل يحدّق فيها، وكأنه يبحث عن شيء
ليتمسك به، شيء يطمئنه أنها ما زالت هي،
لكنها كانت تهوي بعيدًا عن متناول يده.
أدهم: حسنًا... ستندمين، صدقيني. أنتِ لا
تحققين مبتغاكِ، أنتِ فقط تحرقين نفسكِ...
لا أكثر، يا بان.
لم ترد. فقط استدارت بخطوات ثابتة وقالت
بصوت خافت:
بان: سأذهب... إلى اللقاء.
وبقي هو هناك، يراقبها وهي تبتعد... يحمل
قلبًا محترقًا، وروحًا لم تعد تشعر بشيء سوى
الفراغ.

فقط هكذا؟
لماذا وافقتُ على الزواج من نيار؟
ما الذي أريده حقًا؟
لم يكن الهدف سوى التقرب منه، فقط أردتُ كسب ثقته... لكن لم أتوقع أبدًا أنني سأكون زوجته.
ركضتُ بسرعة، مشاعري مضطربة، أفكاري متخبطة حتى وصلت إلى المنزل.
كان نيار في الحديقة، يتحدث مع شخص ما عبر الهاتف. عندما رآني، أنهى المكالمة فورًا.
نيار: بان؟
توقفتُ لثوانٍ، قلبي ينبض بعنف، ثم نطقتُ أخيرًا:
بان: أنا موافقة.

ارتفع حاجباه بدهشة:
نيار: ماذا؟!
تنفستُ بعمق، ثم كررتُ بصوت أكثر ثباتًا:
بان: أنا موافقة على الزواج بك.
لمعت عينا نيار بسعادة لم أرها فيه من قبل.
اقترب بخطوات سريعة، وكأنه لم يصدق ما سمعه للتو.
نيار: حقًا، يا بان؟
قبل أن أجيب، وجدته يحملني بين ذراعيه، ويدور بي وسط الحديقة، ضحكته العالية ملأت الأرجاء، وكأن الحزن لم يزر هذا المكان يومًا.
أما أنا...
ما الذي أفعله؟
أنا حقًا لا أعرف... كل شيء من حولي أصبح معتمًا.....

...: السيدة بان كالي، هل تقبلين الزواج
بالسيد نيار تايلا؟
بان (بصوت خافت متردد): نعم... أقبل.
...: السيد نيار تايلا، هل تقبل الزواج
بالسيدة بان كالي؟
نيار (بصوت ثابت وحاسم): أجل.
...: أعلنكم الآن زوجًا وزوجة.
انفجرت القاعة بالتصفيق، تعالت
التهاني، وامتلأت الأجواء بالفرح... لكن
ليس في قلبها.

كانت التعاسة تكسو ملامحها، شعرت أن الهواء حولها يضيق، كأنها محاصرة داخل قفص من قراراتها.

رفعت رأسها ونظرت إلى الوجوه المبتسمة من حولها، لكنها لم ترَ سوا عينيه...

كان يقف هناك، ينظر إليها بصمت، عيناه غارقتان بالدموع التي لم تسقط، لكن رسالته وصلت إليها بوضوح.

تكلمت عيناه ووبختها بأشد مما قد تفعله كلماته.

شعرت بوخزة فى قلبها، سقطت دمعة من عينيها دون وعي، لكنها مسحتها بسرعة وأبعدت نظرها عنه، محاولة إخماد الحريق الذي بدأ يلتهمها من الداخل.

وقفت بان في مكانها، تشعر أن الأرض تبتلعها ببطء، أنفاسها تتسارع، والمشاعر تتلاطم بداخلها كأمواج بحر هائج.

همست بصوت بالكاد تسمعه نفسها:

بان: أدهم... ليتك تعلم ما أمر به، أنا احترق، صدقني...

كانت عيناها لا ترى شيئًا وسط الحشود، لا ترى إلا هو، يقف هناك محطمًا، مكسورًا، وكأنها فجّرت في قلبه حربًا لم يكن مستعدًا لها.

بان (بهمس مخنوق): ليتني عميت قبل أن أرى تلك الخيبة التي تكسو ملامحك...

أغمضت عينيها للحظة، لتهرب من نظراته، لكنها لم تستطع.

بان (بصوت مرتجف): أنا أعتذر لك... أعتذر لنفسي... أعتذر لأخي... ولوجد... ولسليم... لكن هل الاعتذار سيطفئ الحريق الذي أشعلته؟

مرَّ عامان على زواجها، عامان كانت فيها بان تُتقن دور الزوجة المثالية، تزيِّف ابتسامتها، تُخفي مشاعرها، وتصطنع الحُب وكأنها خُلقت من أجله. لكنها وحدها تعلم أن قلبها لا يزال سجين الماضي، وأن عقلها لا يكف عن التساؤل: هل أواصل ما بدأت؟ أم أستسلم لهذه الحياة التي لم أخترها؟

كانت جالسة في الشرفة، تتأمل السماء
المعتمة التي تُزيِّنها النجوم، تراقبها بصمت
وكأنها تبحث بينها عن إجابة. رفعت يدها
إلى بطنها المنتفخة، ثم همست بخفة وهي
تمرِّر أصابعها عليه برقة:
بان: عزيزي الصغير... والدتك تنتظرك
بلهفة.
لكن قبل أن تغرق في أفكارها، قاطع صوت
رنين هاتفها هذا السكون، ليعيدها إلى
الواقع الذي لم تعتَد عليه بعد.
ارتعشت أصابعها قليلًا وهي ترفع الهاتف
إلى أذنها، وما إن سمعت ذاك الصوت حتى
ارتسمت على شفتيها ابتسامة غامضة،
مزيج من الشوق والحنين، وربما شيء آخر
لا تريد الاعتراف به.

.....: مرحبًا، حبيبتي.
أغلقت عينيها للحظة وكأنها
تستشعر كلماته، ثم همست
بصوت خافت يحمل أكثر مما
تنطقه الكلمات:
بان: أهلًا... اشتقنا إليك.....

في تلك الليلة، عاد نيار متأخرًا كعادته في الأيام الأخيرة. لم تكن بان تعلم السبب، لكنها شعرت بأن المسافة بينهما تزداد يومًا بعد يوم.

بان: آه، حبيبي... هل عدت؟

نيار (بهدوء وهو يخلع سترته): أجل، هل الطعام جاهز؟

بان: بالطبع، تفضل.

جلس نيار على الطاولة بصمت، ثم رفع نظره إليها وسأل بنبرة خالية من أي مشاعر:

نيار: هل آدم نائم؟

بان (متعبة وهي تضع يديها على الطاولة): نعم، لقد أنهكني... يستيقظ كثيرًا طوال الليل.

ابتسم نيار بسخرية خفيفة، وكأنه يتذكر شيئًا ما، ثم قال وهو يلتقط كوب الماء:

نيار: من الطبيعي، فهو في أيامه الأولى... أرأيتِ كم هي صعبة الأمومة يا بان؟

شعرت بوخزة في قلبها من كلماته، لكنها أخفت ذلك خلف ابتسامة هادئة.

بان: نعم، بالطبع... لا شيء سهل في هذه الحياة، خلقنا لنشقى.

نظر إليها طويلًا، بعينين مليئتين بأشياء لم تستطع قراءتها، ثم أكمل طعامه بصمت.

تلك الليلة لم تكن عادية، فبعدها تغيَّر نيار. أصبح أكثر هدوءًا من المعتاد، يدخن بشراهة، يشرب الكحول أكثر من ذي قبل، لم يعد يمازحها، ولم يعد حتى يقترب من طفله.

كانت تراقبه بصمت، تتساءل بينها وبين نفسها...

"من كان يصدق أنني سأهتم بحال عدوي؟ ولكن... هل هذا حقًا لأنني أريده أن يكون سعيدًا؟ أم أن هناك شيئًا آخر يختبئ في أعماقي؟"

لا، لم يكن الأمر مجرد انتقام... بل كان عدالة مؤجلة.

أريده أن يذوق نشوة السعادة، أن يعيش لحظات من الفرح والطمأنينة، ثم يسقط في هوة الألم واليأس. كما فعل بي، كما سرق مني كل شيء.

حين تزوجته، خسرت كل شيء... أخي، أدهم، نفسي. أصبحت مجرد ظل يتنفس، يتحرك بلا هدف سوى انتظار اللحظة المناسبة. لذلك، سأحرص على أن يتمنى الموت ولا يجده.

الوقت لم يُعد إليّ أخي، لكنه أعاد لي أدهم.
بعد أربعة أشهر من زواجي، وصلتني رسالة منه، كانت كفيلة بإشعال كل ما حاولت إخماده داخلي:
"أعلم أنك لم تختاري هذا الطريق بإرادتك، وأن الظروف القاسية هي من دفعتك إليه. لكن لا شيء في هذا العالم سيجعلني أتخلى عنك، حتى لو أصبحت لغيري. حبك يسري في دمي، في أنفاسي، في كل لحظة أعيشها. لا أستطيع أن أكون بعيدًا عنك، ولن أكون.

إذا كان الانتقام هو ما تريدينه، فأنا معك. لن أدعك تخوضين هذه المعركة وحدك. أعلم أنك لم توافقي إلا لأن الخيارات كانت قليلة، لكننى هنا، إلى جانبك، دائمًا. لا يهم كيف ستسير الأمور، فأنا لن أتخير، ولن يفرقنا شيء. مهما حدث، تذكري دائمًا أنني لكِ... وأنت لي."

أغمضَت عيني بعد قراءة كلماته، وأحسست بها تتسلل إلى أعماقي، توقظ بداخلي شيئًا كنت أظن أننى فقدته. لم أعد أعلم إن كنت أسير نحو الانتقام، أم أنني ببساطة أبحث عن طريقي وسط الظلام.

لِمَ عليَّ التظاهر بالقسوة؟ أنا أكثر من يحتاجه، أكثر من يحتاج وجوده. لا يهم إن كنت مرتبطة بنيار أم لا، فبالنهاية أنا أبغضه، ولا أحمل له أي مشاعر...

لم أختر هذا الزواج حبًا، ولم يكن خيارًا نابعًا من رغبتي. لم أفهم حتى لماذا كان الحل الوحيد أمامي، لكنه كان كذلك. لم يكن ضعفًا، لم يكن استسلامًا، بل كان السبيل الوحيد لأبقى قريبة... لأبقى ممسكة بحبال الانتقام.

لكن لماذا يطالبني البعض بالتخلي عن أدهم؟ كيف يمكنني أن أتركه الآن، وأنا في أمسّ الحاجة إليه؟ أدهم لم يكن مجرد حبٍ عابر، كان الحقيقة الوحيدة وسط هذا الوهم، اليد التي لم تتخلَّ عني عندما انقلب كل شيء من حولي. لم يشكّ بي، لم يسألني لماذا، فقط كان هنا، كما كان دائمًا.

لا تسألوني عن ولائي، ولا تطلبوا مني تفسيرًا. لم أخسر نفسي، ولم أفقد هدفي. أنا فقط أسير في هذا الطريق بالطّريقة الوحيدة التي أعرفها... والطريقة الوحيدة التي أستطيع.

عادَت بان وأدهم إلى علاقتهما السرية من جديد، يلتقيان خلسة ويظنان أن الأمور تسير وفق إرادتهما، وأن المياه تجري تحت أقدام نيار دون أن يشعر بشيء. لكن... كان هناك شيء ما، شيء لم يُقال، لكنه لم يكن بحاجة لأن يُقال. لم تكن التفاصيل مهمة، ولا الأدلة ضرورية، فبعض الحقائق لا تحتاج إلى برهان، يكفي فقط أن تُحس. كانت الحياة تمضي كما لو أن كل شيء طبيعي، كما لو أن لا شيء يحدث في الخفاء، لكن الصمت نفسه كان يفضح أكثر مما ينبغي.

ربما كان يعلم، وربما كان يشعر فقط.
وربما كان الأمر أعمق من مجرد
معرفة... ربما كان انتظارًا. انتظارًا
للحظة ما، لخطوة لم تُتخذ بعد، أو
لحقيقة لم تخرج من الظلال بعد. لكن
السؤال لم يكن عن مقدار ما يعرفه، بل
عما سيفعله عندما يقرر أن الوقت قد
حان.

في يومٍ بدا عاديًا كغيره، نام صغيري أخيرًا، فوضعتُه برفقٍ على سريره، ثم استدرتُ لأجد نيار واقفًا خلفي.

ارتجفتُ للحظة، لم أكن أتوقّع وجوده هناك.

بان: نيار! لقد أفزعتني، منذ متى وأنت هنا؟

نيار: منذ دقيقتين. أريد منكِ أن تحضّري أشهى الأطباق الليلَة.

بان: لماذا؟

نيار: أحد رجالي سيأتي، وقد دعوته على العشاء.

اكتفيتُ بإيماءة خفيفة قبل أن أتوجه إلى المطَبخ، بينما تساؤلٌ واحد يدور في ذهني: من يكون هذا الرجل؟

لم يسبق لنيار أن استضاف أحدًا في منزلنا، لا منذ زواجنا ولا حتى عندما كانت وجد زوجته. كان هذا غريبًا... لكنه لم يبدُ مريبًا بعد.

بعد أن انتهيتُ من تحضير الطعام، كنت أضع لمساتي الأخيرة حين دوّى صوت الجرس في أرجاء المنزل.

بان: نيار، لقد وصل ضيفك.

نيار: حسنًا، سأفتح الباب.

بقيتُ في المطبخ لبعض الوقت، أرتّب الأطباق وأحاول أن أشغل نفسي بأي شيء. لكن حين حملتُ الأطباق أخيرًا وتوجهتُ نحو طاولة الطعام، حيث يمكنني رؤية غرفة الجلوس بوضوح... تجمّدتُ في مكاني.

ضيفه... كان أدهم!

لم أسمح لملامحي أن تفضحني، رغم أن صدري ضاق وكأن الهواء قد فُقِد من حولي. لماذا لم يخبرني أدهم بذلك؟ لماذا لم يلمّح حتى؟

أجبرتُ نفسي على التحرك، وضعتُ الأطباق على الطاولة، ثم رفعتُ رأسي نحو أدهم. زيفتُ الإبتسامة، وألقيتُ التحية بصوتٍ ثابت، فيما عيناي تبحثان عن إجابة بين ملامحه.

بان: أهلًا بك.
أدهم: أشكركِ، سيدتي.
ابتسمتُ بخفةَ قبل أن ألتفت نحو نيار وأقول:
بان: حبيبي، هل يمكنك مساعدتي في حمل بقية الأطباق؟
نيار: بالطبع.
نهض وساعدني، وها نحن الآن نجلس على مائدة الطعام. كان صوت الملاعق يلامس الأطباق في صمتٍ ثقيل، والشرارة في الهواء لا تحتاجُ إلى تفسير. لكن هذا الصمت قُطع فجأة ببكاء طفلي. نهضتُ مسرعة لأحضره، وعندما عدتُ، كان بين يديّ، يحرك أصابعه الصغيرة .

نيار: لماذا يبكي صغيري الجميل؟
بان: ربما شعر بالخوف لوحده.
نظر نيار إلى أدهم نظرةً غامضة، ثم قال بنبرة حملت أكثر مما يفترض أن تحمله:
نيار: هذا ابني، أدهم. إنه يشبه جميلتي بان.
ارتسم هدوء بارد على وجه أدهم، وكأن شيئًا ما داخله تحطم بصمت.
أدهم: حفظه الله لك.
ارتشف نيار القليل من شرابه، ثم قال بصوت هادئ لكن معناه كان أعمق من مجرد كلمات:
نيار: عانيتُ مرارة الفقد، لكن ها أنا أقف من جديد، ومعي زوجتي وطفلي.

شعرتُ بأنفاسي تضيق. نظرتُ إلى أدهم بسرعة، خشية أن يفقد أعصابه، لكن ملامحه لم تُفصح عن شيء. ما أخافني أكثر لم يكن صمته، بل كلمات نيار. لماذا قال ذلك؟

انتهت الليلة أخيرًا، ووجدتُ نفسي مستلقية على سريري بجانب نيار، أقرأ كتابًا في محاولة يائسة لتجاهل القلق الذي ينهش صدري.

نيار: بان.

بان: نعم؟

سحب الكتاب من يدي ببطء، نظر إليّ مباشرة وقال:

نيار: هل أنتِ سعيدة؟

بان: بالطبع، لماذا تسأل سؤالًا كهذا؟

لم يرد. بقي ينظر إليّ بصمتٍ مربك.

بان: نيار، هل أنت بخير؟ لقد تغيرتَ كثيرًا في الآونة الأخيرة.
نيار: تغيرتُ؟
بان: نعم!
ظلَّ صامتًا للحظة قبل أن يجيب بصوتٍ منخفض، وكأن كلماته لم تكن موجّهةً لي فقط:
نيار: مع الوقت، سيتضح كل شيء.
ثم استدار لينام، تاركًا خلفه موجةً من الريبة تسري في دمي.
يا لها من ليلة سوداوية...
وضعتُ رأسي على الوسادة، أغمضتُ عينيّ، وكم تمنيتُ لو أنني لم أنم.

زارتني وجد في حلمي...
وجد لم تكن مجرد طيف، لم تكن مجرد ذكرى بعيدة، بل كانت حاضرة بكل وضوح، بكل قوتها، بكل ألمها. وقفت أمامي بثبات، عيناها تضجان بالغضب، لكن خلف هذا الغضب، كان هناك شيء آخر... خيبة أمل، حزن، وربما شيء يشبه الشفقة.
وجد: "أهذا ما أردته، بان؟ أهذا هو انتقامك؟"
تجمدت في مكاني، أردت أن أتكلم، أن أشرح، أن أقول شيئًا، أي شيء... لكن صوتي لم يخرج.
وجد: "كنتِ أختي... كنتُ أثق بك، ظننتكِ ستسيرين معنا، لا ضدنا... لكنكِ اخترتِ طريقًا آخر، طريقًا لم يعد فيه مَكان لنا."

أخذت خطوة نحوي، عيناي لم تستطيعا
الهروب من نظرتها الثاقبة.
وجد: "أخبريني، هل كنت سعيدة عندما
وقفتِ أمام القاضي وقلتِ 'نعم'؟ هل
شعرتِ بالراحة وأنتِ تضعين يدكِ في يده؟
هل ظننتِ للحظة أن هذه اللعبة لن تلتهمكِ
قبل أن تلتهمه؟"
أردت أن أصرخ، أن أقول لها إنها لا تفهم،
أنني لم أختر هذا بمحض إرادتي، لكن
كلماتها سحقتني قبل أن أنطق.
وجد: "لا تلعبِي بالنار وأنتِ غارقة في
الزيت، بان. لا تخدعي نفسك، فالوقت لا
يعيد أحدًا، لكنه يسلبُ منكِ أكثر مما
تتخيلين. كنتِ تريدين الانتقام؟ حسنًا، لكن
أخبريني... من ينتقم من مَن الآن؟"

أحسستُ بألمٍ غريب في صدري، وكأن الهواء من حولي أصبح أثقل. التفتت وجد قليلًا، وهناك، بجانبها، كان سليم... ينظر إليّ بنفس البغض، بنفس الكره، وكأن وجودي بحد ذاته خطيئة لا تغتفر.
وجد: "أنتِ تخسرين، بان. ببطء، دون أن تشعري... وكلما أوغلت في هذا الطريق، كلما أدركتِ أن كل خطوة تأخذينها ليست نحو الانتقام، بل نحو نهايتكِ أنتِ."
ثم اقتربت أكثر، حتى أصبحت على بعد أنفاسٍ مني، همست بصوت جعل القشعريرة تسري في روحي:
"ستندمين يا بان... **ضغينتكِ تلك ستقتلكِ.**"

استيقظتُ مفزوعة، أنفاسي تتلاحق، يديّ ترتجفان. نظرتُ حولي... الغرفة مظلمة، وصوت تنفس نيار الهادئ يخترق السكون.
وضعتُ يدي على صدري، أشعر بضربات قلبي المتسارعة، وكأنها تحاول الهروب مني.
هل هذا تحذير؟ هل هذا مجرد كابوس؟
أم أنني بدأتُ أخسر نفسي فعلًا...

العودة الى الماضي:

...: "ساجي؟"
تردد الاسم في الفراغ وكأنه صدى لحقيقة ثقيلة بدأت تتكشف. لم يكن هناك حاجة للإجابات، فالصمت وحده كان كافيًا ليؤكد كل شيء.
...: "نعم... إنه أخاها."
جملة قصيرة، لكنها حملت بين طياتها ما يكفي لقلب الموازين. الحقيقة لم تعد سرًا، والأوراق التي كانت مبعثرة بدأت تتجمع أخيرًا في صورة أوضح.
...: "اتضح كل شيء الآن."

لم يأتِ أي رد، فقط نفس بطيء خرج بهدوء، وكأن المتلقي لم يُفاجَأ، أو ربما لم يُرد أن يُظهر ذلك.

...: "وماذا عن الطفل؟"

بقي يومان فقط على ذكرى زواجي الثالثة، وكنت أفكر... كيف مضى كل هذا الوقت؟ كيف تحولت حياتي إلى هذه الدوامة التي لا نهاية لها؟ لكنني لم أنسَ، لم أنسَ السبب الذي أوصلني إلى هنا... لم أنسَ وعدي.

انتظر يا ساجي، لم يبقَ إلا القليل...

انتظرني.

رنَّ هاتفي، قاطعًا أفكاري المتشابكة. أدهم: "انزلي، أنا في الحديقة الخلفية."

بان: "هل جننت؟! نيار في المنزل!"

أدهم: "نعم، جننت. انزلي الآن، وإلا سأدخل أنا."

نهضتُ بسرعة، لحسن الحظ كان نيار في مكتبه. تسللتُ بحذر، وعندما وصلت إليه، واجهته بنظرة غاضبة.

بان: "ما الذي تريده الآن؟!"
أدهم (بعينين مشتعلة): "لا يمكنني التحمل أكثر، نفّذي خطتك الليلة!"
بان: "أدهم... مستحيل! الليلة؟! هذا جنون!"
أدهم (بغضب مكبوت): "إلى متى؟! إلى متى سأراك متزوجة منه؟! لا تقولى لى أنك بدأتِ تَحبينه؟!"
بان (ببرود قاتل): "كيف أحبه وهو من قتل أخي؟!"
أخذتُ نفسًا عميقًا، ثم أكملتُ بصوت منخفض: "يومان فقط... سأنهي كل شيء في ذكرى زواجنا الثالثة."

حدّق بي مطولًا، وكأنه يحاول قراءة أفكاري، ثم قال بصوت هادئ لكنه يحمل توترًا مكبوتًا: "يومان؟"

بان: "انتظرتني طيلة هذا الوقت، ألا تحتمل يومين؟"

صمت قليلًا، ثم أومأ ببطء: "حسنًا... والخطة كما أخبرتني سابقًا؟"

بان: "تمامًا كما أخبرتك."

أدهم: "حسنًا."

بان: "اذهب الآن... لا تتهور مجددًا!"

اقترب قليلاً، وكأنه لديه شيء آخر ليقوله، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة: "أعتذر... حبيبتي."

بان: "اذهب."

راقبته وهو ينسحب في الظلام قبل أن أعود للداخل، لأجد نيار في غرفة الجلوس يشاهد التلفاز، لكنني شعرتُ بنظراته تخترقني.

نيار: "أين كنتِ؟"

بان (بتردد طفيف): "خرجتُ لأستنشق بعض الهواء."

نيار: "أه... حسنًا."

بان: "هل تحتاج إلى شيء؟"

نيار: "لا."

بان: "سأصعد إلى الغرفة."

في اللحظة التي استدرتُ فيها، شعرتُ بثقل نظراته. هل كانت شكوكًا؟ أم أنه يعلم؟

لا أعلم... لكنني أدركتُ شيئًا واحدًا:

عليّ أن أُنهي هذا سريعًا، قبل أن يسبقني بخطوة.

أخيرًا... بعد كل هذا العذاب، بعد كل ليلة سحقتها روحي فيها حتى جفّت دموعي، ها أنا أقف على حافة النهاية. النهاية التي طالما حلمت بها، التي كنت أقاتل من أجلها، التي ضحيت من أجلها براحة بالي وسلام نفسي. كل شيء جاهز، كل شيء معدّ، وغدًا... غدًا ينتهي هذا الكابوس. غدًا تشرق شمسي، أو ربما... ربما سينتهي كل شيء في لهيبها.

لكن لماذا أرتجف؟ لماذا يختنق البكاء في حلقّي، كأنني على وشك وداع شيء غالي بدلًا من الاحتفال بالانتصار؟ جسدي يرتعش، ليس من البرد، بل من الخوف... خوف من أن أكون قد عشت كل هذه السنوات فقط لأخفق في اللحظة الأخيرة. ماذا لو ضاعت كل تلك التضحيات؟ ماذا لو كنت أعيش في وهم، مجرد دمية تتحرك بخيوط الأوهام؟ لا، لا أستطيع التفكير بهذا الآن. ليس وأنا على بعد خطوة واحدة من تحقيق ما تمنيت.

لكنك... أنت، نيار. اسمعني جيدًا، لو كان للحقد روح، لكان صراخه الآن في داخلي، يردد اسمك مرارًا. كم أبغضك! كم أمقتك، حتى في ذاكرتي المظلمة! أنت العقبة التي أسقطتني مرارًا، أنت السواد الذي لوث أيامي، أنت الندبة التي مهما حاولت أن أمحوها، تظل تنزف، تذكرني بأنك كنت هنا، وأنك دمّرت شيئًا مني لن يعود كما كان. لكن لا يهم... غدًا، سيكون لك مكان في الماضي. غدًا، سأتخلص منك كما تمنيت طوال هذه السنوات. غدًا، سواء انتصرتُ أو سقطت، سيكون لي الحق في أن أقول: لقد واجهتك، ولن أكونّ أضعف منك مرة أخرى.

في الحادي عشر من فبراير، جلست أمام المرآة أضع القليل من مساحيق التجميل، أحاول رسم ابتسامة هادئة على ملامحي. بينما كنت منشغلة بذلك، دخل نيار إلى الغرفة وألقى بجسده على السرير بتعب.

أدرتُ ظهري إليه ونطقت بابتسامة خفيفة:

"كيف كان يومك؟"

رفع رأسه قليلًا ونظر إليّ قبل أن يجيب ببرود:

"لا شيء... كأي يوم آخر."

زفرتُ بهدوء قبل أن أقول، وأنا أكمل ترتيب خصلات شعري:

"غدًا سيكون يومًا مميزًا."

رمقني بنظرة متسائلة:
"غدًا؟"
ضحكتُ بخفة وأنا ألتفت نحوه:
"مهلًا... هل نسيت ما هو غدًا؟ إنه الثانى عشر من فبراير!"
"إذًا؟" أجاب بلامبالاة.
قطّبتُ حاجبيّ:
"نيار! إنه ذكرى زواجنا... آه! كيف يمكنك نسيان هذا؟!"
قهقه بخفة وكأنه كان ينتظر ردّ فعلي قبل أن يقول بصوت هادئ:
"أنا لم أنسَ."
ضيّقتُ عينَيّ بشكّ:
"حقًا؟ لقد صدقتك."
ابتسم بزاوية فمه دون أن يعلّق، ثم سألني

بفضول:
"وماذا تخططين لفعله؟"
ابتسمتُ بحماس مصطنع:
"هناك مفاجأة جميلة، لذلك عليك أن تعود مبكرًا."
لم يردّ... فقط نظر إليّ بصمت وأنا أتابع وضع مساحيق التجميل. شعرتُ بنظراته تخترقني، لكنني تجاهلتها حتى كسَر هو الصمت أخيرًا:
"رؤيتك هكذا... وأنتِ تضعين مساحيق التجميل... ذكرتني بـ—"

توقّف فجأة، كأنه ندم على ما كان على وشك قوله. لكنني كنت قد فهمت. تجمّدت يدي في مكانها، وشعرتُ بمرارة تلتف حول قلبي.
زوجته السابقة.
بعد كل هذه السنوات... هل لا تزال تسكن ذاكرته؟ بل ويقارنني بها؟!
تدارك نفسه سريعًا وقال بنبرة هادئة:
"لا عليكِ، بالطبع سأعود مبكرًا. تصبحين على خير."
راقبته وهو يدير ظهره وينام، وكلماته الأخيرة تتردد في رأسي كصفعة باردة.
لا بأس... فغدًا ستراها.

ومضت هذه الليلة بسلام، حتى جاء اليوم الموعود. توتر، قلق، خوف، وغضب. سعادة ولهفة. كل المشاعر المتناقضة اجتمعت في قلبها، وكأنها عاصفة هوجاء لم تكن تنتظرها.

ها هي تعد العشاء الرومانسي، أو ربما هو العشاء الأخير لنيار، وكأنه طعم الفئران الذي سيتذوقه في النهاية.

أرسلت إلى أدهم عدة رسائل، واحدة تلو الأخرى، ولكن لا جواب.

"لا بد أنه مشغول"، قالت لنفسها، فقررت ألا تزعجه أكثر. وضعت هاتفها جانبًا، محاولةً تهدئة نفسها، ولكن بعد خمس دقائق، سمعت صوت إشعار الهاتف. شعرت باللهفة، ظنّت أن الرسالة ستكون من أدهم، لكن كان الصوت صادرًا من نيار.

نيار: "بان حبيبتي، أنا اعتذر، ولكن عمل طارئ داهمني. أعدك بأن أعوضك."

اللعنة! ما الذي يعنيه بعمل طارئ؟ لماذا الآن؟ لماذا في هذا اليوم؟

جلست بان على الكرسي، جسدها يرتجف من الخوف. ماذا إن أخفقت بعد كل هذا الانتظار؟ هل سيضيع كل شيء الآن؟

حاولت الاتصال بأدهم مرة أخرى، حتى كاد هاتفها أن يحترق من كثرة المكالمات، لكنه لم يجب. غسلتها موجة من الغضب، فألقت بهاتفها على الأرض بعنف.

"هذا ما كان ينقصني!" قالت بصوت منخفض، يغلب عليه التوتر.

لكن، قبل أن تلتقط أنفاسها، وصلها اشعار على الهاتف . هذه المرة كان أدهم.

أدهم: "بان، حدث لي مشكلة، اعتذر عن ذلك."

بان: "أدهم، وماذا عن الخطة؟"

أدهم: "نفذيها."

بان: "ولكنه قال لي بأنه مشغول وسيتأخر اليوم. الأمور لا تسير كما خططنا لها!"

أدهم: نفذي خطة أخرى."

بان: "خطة أخرى؟ ماذا تقصد؟"

أدهم: "استمعي لي جيدًا. سأعطيك التفاصيل، وعليك أن تلتزمي بها بدقة."

بان: "ولكن، ماذا لو فشلت الخطة؟ ماذا لو ضاعت كل هذه السنوات؟"

أدهم: "لن تفشلي. لديكِ الفرصة الآن. سأشرح لكِ ماذا تفعلين، عليكِ أن تكوني سريعة.

الخطة الثانية، صحيح أنها الخطة البديلة للأولى، ولكنها كانت آخر احتمال عندي، فلم أفكر ولا حتى بنسبة واحد بالمئة بأنني سأقوم بها. فهي صعبة للغاية، ولكن كما قلت لن أنتظر أكثر، فإما أن يلقى حتفه أو ألقى حتفي. عاد إلى المنزل متأخرًا كما قال، كنت في الحمام أمثل أنني أستحم وصوت رشاش المياه يوحي بذلك. من المفيد في هذه الخطة أن نومه ثقيل للغاية، فلو شبت حرب لن يستيقظ.

انتظرت لساعتين، ثم فتحت الباب بخفة ونظرت لأراه نائمًا، والبطانية تغطي كل جسده ووجهه. تنفست الصعداء، ثم أمسكت بذلك الشيء الذي لم أتخيل يومًا أنني سأستخدمه. كونك يا نيار رجل عصابات، أفادني كثيرًا. أنفاسي كانت متقطعة، وجسدي يرتعش، وبيننا خطوة واحدة. رأيت صورة أخي ومرارة أيامي، وكل ما خسرته وعانيته.

شددت قبضتي على السلاح وسحبت الزناد لأطلق مرة ومرتين وثلاثة وأربعة والخامسة التي كانت الأخيرة. ومع كل طلقة، كنت أبكي فرحًا، وريش الغطاء يتناثر حولي.

سقط السلاح من يدي، والدموع تملأ وجنتي فرحًا، وأخيرًا! انتهى كابوسي. فجأة، سمعت صوت تصفيق يأتى من خلفي. تسمرت في مكاني، إنه أدهم بالتأكيد. أدرت ظهري، ويا ليتني شللت أو مت في تلك اللحظة.

نيار: عمل رائع، لم أعلم أنك جيدة بالتصويب يا شقيقة ساجي.

ك.. كيف! ألم أقتله! إذًا من الذي قتلته!؟ اقترب نيار مني، وأمسك معصم يدي وضغط عليه بقوة، ثم نظر إلى السرير وقال: "يا ترى إن كنت أنا على قيد الحياة، فمن هذا؟"

هرعت، ويداي ترتجفان، لأسحب الغطاء عن وجه من قتلت. أنا قتلته بيدي! قتلت حبيبي! أدهم مات بسببي!

خارت قواها وصرخت مما رأته. فنزل نيار إلى مستواها، وأمسك وجنتيها بقوة وهو يضحك: "أرأيتِ كم أنتِ فاشلة؟ حتى حبيبك قتلته بيدك. أصبحتِ بلا أم ولا أب ولا أخ ولا حبيب، بل ولا حتى ابن!"

توسعت عيناها مما قاله. آخر شيء:

"ما... ما الذي تقصده؟!"

نظر إليها وهو يضحك، فصرخت بان:

"ما الذي فعلته بآدم!؟"

أمسكته بان من ياقته: "ما الذى فعلته به ها!؟ أجبني يا أيها اللعين!"

نيار: "ابنك ذهب مع والده."
سكت لحظة، ثم انفجر ضاحكًا.
نيار: "ستجدينه في نفس المكان الذي قتلت فيه ابني سليم."
صرخت بان بشدة، والدموع تتساقط على وجنتيها كالشلال. فصفعها نيار ثم قال لها: "أتظنينني أحمقًا لا أشعر بكما؟ أتظنين أنني لم أعرف أنكِ شقيقة ساجي؟ لأنكِ حمقاء، أخفَقتِ. عرفت بعلاقتكما وعرفت من هو أخوكِ، وأن آدم ليس ابني!"

شدّها من شعرها وجرّها إلى الشرفة التي سقط منها سليم، لترى طفلها الذي كان ملقى في نفس المكان.
انهارت مجددًا، لكنه أمسك بها بقوة.
نيار: "بينما أنتِ تنظرين إلى هذه الإطلالة الجميلَة، سأقول لكِ بأنني أنا من تحدث معكِ، ليس أدهم."
بان: "اللعنة عليكَ يا نيار! يا ليتني مت قبل أن أعمل عندك. يا ليتني مت قبل أن أعرفك وأراك!"
ضحك نيار ثم قال: "عيد زواج سعيد لنا."

وهكذا، وسط صرخاتها التي مزقت
السكون، لم يتبقَّ منها سوى رمادُ
الضغينة التي أشعلتها بنفسها... رمادٌ
تناثر مع الريح، كأنها لم تكن يومًا...

النهاية